الجوفار

الجوفار

رواية

مـروة متـولي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات
U.A.E.

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9948-446-10-1

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

أبوظبي هاتف: 6345404 (2-971+) فاكس: 6345407 (2-971+)
دبي هاتف: 2651623 (4-971+) فاكس: 2653661 (4-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

إهـــداء ..

إلى المتولي عبد السلام المتولي...

كنت أول من قرأني...

ولا أزال أنا أقرأ العالم من خلال عينيك...

ولا أزال أسعى بين ضفتي كتابك...

ولا مستقر لي سوى عشقك...

مروة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ...﴾ صدق الله العظيم

لـم يكـن أحـد يتوقـع أن يكـون الحـال كمـا هو حاصـل الآن في الجوفار، بذلك حكمت يا من رفعت السموات وبسطت الأرض، فأعنا مولانـا علـى الهبـوط والارتقـاء، فنحـن بحبل الحيـاة متعلقون، لا تأمن القدم خطوتها فوق أرضك، ولا تطال اليد سماءك، نأمل رضاك ونتقي سخطك المؤلم.

في مرتع الجور لقينا ما لقينا من هم وتعب رسخ ألمه في الروح بحثاً عـن حقنـا المهضـوم، عظم الخطب واشـتد الكرب وجاءنا الحزن مـن كل مـكان، واليـأس قـد بلـغ منا مبلغه، نرتجي في كل صباح فرجة تخفـف عنـا بعـض مـا نـزل بنـا، فيجئ النهار بما هو أشـد هولاً وأعظم كرباً، شـحب لوننا وزاغت أبصارنا، أدركنا كآبة مصيرنا، وأنه لا سـبيل إلـى الخـروج بسـبب تلـك الأسـوار العاليـة التي تناطح السـماء، وتلك الأبواب المنيعة الصلدة.

ضربت علينا الذلة، تصدعت أكبادنا، ونيطت بعنقنا الحبال، وبلغت القلوب الحناجر، نسـج أكفاننا الناسـجون، وهمت الأرض أن تلتهمنا، وهمت السـماء أن تطبق علينا، حل بنا من الرعب ما لم نعرف، ومن

الألم ما لم نذق، منا من مشى إلى الأجل على قدميه، ومنا من نظرت عين المنية إليه، ومنا من ذهلت منهم العقول وغابت.

ومنا من بات يؤثر العدم، وتلاشى كل خوف لديه، ولم يعد يكترث لشيء، ولم يعد يخشى شيئاً.. وفي هذا يقولون: وهل ثم وبال أشد من الوجود في الجوفار؟!... ماذا عسانا أن نخشى إذن؟!... لم يبق لنا من أمل إلا اليأس الكامل، إننا قد حكم علينا بعذاب لا ينتهي، وأيامنا هنا لا ترجى لها نهاية، وإذا كان هذا مصيرنا، فنحن لا نستطيع التحمل، ولا نستطيع الصبر علي ذلك النصيب المتفاقم من الشقاء.

ومنا من بقي هنا يتساءل، متى نبدل مسكناً بقبر؟ وإلى متى يطول مكثنا؟ نحن الباقون هنا، نستكمل العمر بالسنين، لا تغرنا قوة الجسد، لا يغرنا سواد الشعر، لا يغرنا الأمل، إلا أن غفران إلهنا مأمول، فألطف مولانا بضعفائك، فما أجدرك بالرأفة، فأعنا رب واعن بنا، فنحن إلى رحمتك فقراء، ومن الغني عنك، إليك نرغب، وبك تمسك النفوس، ولسنا بسواك متشبثين.

نفزع إليك من هذا العبء المثقل، من تلك الظلمة التي لا يجلوها النهار، تلك الظلمة الحالكة السحيقة التي لا نهاية لها، يلفنا الصمت العميق، يجللنا العار، نسقط ونسقط، نرهب السماء، نتساءل، ماذا عساه يهون من عبء الضنك الذي يرين علينا، وهل ثمة ما يريحنا ويخفف عنا، ويحقق خلاصنا جميعاً، لا نقنط، نتمسك من الدوحة بأضعف الأغصان، نشقى، نقنع، لكن لا نأمن، نحب الدنيا وكأنها تحبنا، فنجد الديار خالية والأجساد بالية، تضيق علينا دنيانا، فنعتصم بقدرتك.

ندأب في الطاعة، نسمع ولا نعرض، نؤمن أنك ما أنشأتنا لعبث، وأن في خوفك الشرف والنور، إلا أن العمر ماض، وكم وجدنا هنا من اعتبار، لن نفر من قدرك، لن نطأ على غير أرضك، ولن نبرز من تحت سمائك، نشكو إليك أثقال الزمن، لا نعلم وقت إسكانك لنا في الجوفار، عشنا هنا ما شئت، ونعيش ما تشاء، نقر بالعجز، خلقتنا ضعفاء،

وإن لم ننعم بلطفك ورأفتك فلنلق حتوم القضاء بائسين، نستغفرك رب ونستعينك، فمن يجير المكلومين سواك، ومن سواك يزيل غلة الفؤاد، فأنـت العالـم بضمائـر الصـدور، لا نيـأس من رحمتك، فأنت على دفع النازلة قدير، سبحانك مولى وعضداً.

لحظات...

للجوفار لحظات يبدو فيها مريعاً، عميقاً، لا قرار له، يبدو كمدينة تجري شـوارعها متآلفة مع تعرج الخـط الأبدي وامتداده، ونبقى نحن وسـط عجائب هذا المكان التي هي أكبر من أن يحيطها أي عقل، نمشي وننام، نقتات ونرتوي، ولسوف نموت جميعاً ونفنى، ولن يخلد سوى العار الذي لحق بنا، وليس علينا سوى أن نلعب دورنا حتى النهاية في هذه المهزلة...

من العار أن نفنى... من العار أن نفنى

لا أدري لـم أحسسـت فـي ذلـك اليـوم أن أمـراً مؤلماً سـيداهمنا، فمن ذا يبدد ظلمات نفسـي، ويشـد أزري، في ذلك اليوم اندفعنا دون قصد، نسرع بسيرنا، خائفون، حانقون، في أعماقنا هواجس نحاول أن نخنقهـا، إلا أنهـا تظهـر فـي أعيننـا المتوهجة القلقة من تلك الحياة التي تجر علينا الأحزان، تلك الحياة ذات المذاق الفاني.

نحن قوم لا نحمل هويتنا على أجسادنا ولا فوق رؤوسنا، لا يتم تمييزنـا والتعـرف علينـا من ملابـس نرتديها، هويتنا قائمة بداخلنا، تطل ملامحها من الوجوه التي يضحك ظاهرها والباطن معبس، من جفون أعيننا التي منعت لذيذ الإغفاء، نحن الأشقياء، الأذلاء في تلك البقعة العزيزة، نحن أهل التراب، نحن الأقدمون، يزحف علينا ليل كأنه كفن طويل عبثاً نحاول أن نجد له نهاية، في هذا الجو المظلم نعيش تحت وطأة كابوس ثقيل، نرزح تحت سيطرة سر رهيب.

فـي هـذا الجوفـار الموحش المخيف، نعيش ضنك الحال وضياع المآل وخيبة الرجاء، في هذا المكان الذي امتنع فيه الأمل، نعيش في ذلك الظلام الدامس البهيم، عذاب دائم متدفق، هنا في موطن الكروب المضاعفة، ندرك عبء ثقلنا الخارق، هنا نعيش تعاسة المأوى مع شركاء الضياع، رائحين غادين تشتد أتراحنا.

هنا نعيش انكسـارنا المزري الذي يشـهد عليه هذا المكان الذي يضيـع فيـه الزمـان والحـدود والأبعـاد، هنا... أين لنا القدرة على الحياة الحـرة فـي هـذا العالـم السـحيق مـن الظلمات؟!... فلسـنا بغافلين عن الخسران الفادح الذي غشينا، لكن، هل خسرنا كل شيء؟!... هل نواجه ما لا يقهر؟!... هل تعجز تلك الأعداد التي لا تحصى والتي تعتصرها الآلام عن إقصاء القلق والشك والخوف والحزن والألم؟!... ألا نمتلك عزيمة لا تفل؟!... حقداً لا ينفد؟!... صموداً لا يعرف التسـليم؟!... وأكبر من كل ذلك، أليس لدينا الرغبة في الانتقام؟!... ألا نتنفس جميعاً أنفاس الغضب؟!... فلم لا نتنفس جميعاً قوة موحدة؟!...

لن نقدر على فعل ذلك إلا إذا تساوى الأمل لدينا، وتضافر الفكر واجتمعـت الكلمـة، أن نجمـع مكرنا الدفين وحقدنا الراسـخ، فنتكاتف ونتعاضـد ونخطـو سـوياً رغـم الأقـدار، لربما نبصـر التخوم ونصل إلى الأبـواب، فنخـرج مـن ذلـك المـكان الموحش الكئيب، علنا نجد مكاناً ألطف وأحنى، فهل نقدر؟!...

لكـن مـن أيـن لنـا القدرة علـى الحياة الحـرة؟!... أين؟!... ومن أيـن لنـا أن نتحمـل مشـقة الحريـة ونحـن نتبـوأ مكانة الـذل، فهل نحن قادرون على اختراق ظلمتنا؟!... هل نزدهر في مثل هذا الشر؟!... هذا الضرر... هذا الفشل... هذا العذاب... هل نستمد من القوة المستحيلة القدرة على الحياة الحرة؟!... فتشرق شمسنا وتسطع عالياً، ونطل من الظلمات التي تخفي بهاءنا؟!...

نزأر في تلك الظلمة من حولنا، نعبئ قوى غضبنا، نشعر بالألم،

نتلوى في مكابدتنا، أسـوار عالية وأبواب مقفلة تصدنا، وتحبط كل ما ندبره، قضي علينا ونكبنا بخسارة لا تعوض، منحنا سلام الرق في سجن أليم، نجنح للسلم، للوفاق الوطيد، نفضل الاستقرار، نتخذ من الصبر العاتي سـلاحاً، إلا أننا لسـنا بغافلين عن الحق، نتمرد، نثور، نتمنى لو ننشر الجحيم، نقاوم مقاومة لا تلين، نبذل كل طاقات العداء والحقد، لا نتمهـل فـي الثـأر، نسـعى إلـى أن نجـد أفضل السـبل لمعالجة بلائنا الحاضر، ورغم طموحنا، إلا أن الخوف مازال يهز جوانحنا.

في ذلك اليوم أضاءت الإشارة، أسرعت نحو المقدمة، وبدأ الذين كانوا ينتظرونها يعبرون الشارع فوق الخطوط المرسومة لكل منهم، تلك الخطـوط التـي لا يراهـا إلا مـن خطـت من أجله، وعلى أية حال كانت تسـمى خطوطـاً، كنـا لا نـرى الأغـلال حـول الأعنـاق، ولا ندري متى سنكون أحراراً، نسعى إلى كشف الأسرار، نموت قبل الأوان، ولا نحيا في السماء، ما نعانيه يصعب إثباته مع أنه واضح كضوء النهار، نستجدي الوسائل، إلا أن هناك من يغتنم الفرصة والأمر كله بين يديه.

نكـره مـا نفعـل، ولا نقـوى علـى فعـل ما نحـب، لطالما كان حبنا للسلام وللهدوء شديداً، ونحن الآن نود لو نمضي حياتنا كلها في العراك، ونتـوق لخـوض معـارك رهيبـة، كم يبدو العـبء فادحاً رغم محاولاتنا، حاولنـا فـوق طاقتنـا وأكثـر ممـا ينبغـي ولأطول ممـا ينبغي، ولا كلمات قـادرة علـى أن تضاهـي سـخطنا، وهـا نحـن نتحمل العـبء الأكبر، ولا نتوانى أبداً عن خوض المقاومة، فمتى ننال حريتنا ونطرح قيودنا؟!...

وقفت أنا أبقي قدمي على أهبة الاستعداد للقفز خارج الجوفار، أتقـدم وأتراجـع كمهـرة ترغـب في الانفلات، تأخرت إشـارة الانطلاق كالعـادة، وكالعـادة أيضـاً يتضاعـف هـذا التأخيـر فـي كل مـرة، خبطـوا غاضبين على رؤوسهم، أما أنا فتلفت برأسي ذات اليمين وذات الشمال، كنت أصرخ بكل شيء، لكن أحداً لم يفتح لي الباب، ولم أتمكن أنا من فتحه.

كانت عيناي المفتوحتان على اتساعهما تشيران إلى أنني قد خبلني الكـرب، كمـا يسـتطيع أي امـرئ أن يـرى، ولـم أكن الوحيدة التي بدت هكذا، كان هناك حولي العديد ممن شـاهدوا بأعينهم ما كنت أراه أنا للمرة الأولى، طلقات نارية نجهل مصدرها تصيب رجلاً فيسقط جسداً مهلهلاً، وخلال دقائق قليلة يتكرر المشهد أكثر من ثلاثين مرة، أناس بهذا الكم يموتون على مقربة مني، كنت محاطة بالموت ورائحة الدم، وكنت أحس بالموت في نفسي أنا أيضاً، كنت أقف وسط هذا الشيء المفزع الأكيد.. الموت، بقيت أياماً ممددة في فراشي دون حركة، دون صوت، تكومت كل الصور فوق قلبي وتجسمت أمام بصري الزائغ.

أيهـا الجوفـار الثقيـل، تشـكلنا هياكل متشـابهات ثـم تجبرنا أن نحيـا، أن نتلاحـق في ركض أسود في بلاد الدم والموت الباهت، تشكلنـا وجوها، وجوها متحيـرة، وجوها أسيرة، وجوها ضائعة، والسارقون يبتسمون، يهدون رؤوسنا للريح، ويلفون أجسادنا في عباءات مأتمية سوداء.

ماذا إذا لم نعرف؟...

أقف وأنظر بعيداً بعد سير طويل امتد لساعات، أشعر بتغير في الطقس، تهب ريح متربة، أشعر بقطرات أولية لمطر لم يسقط، أجتاز الشارع وادخل إلى البيت، أتوقف في المطبخ، أشعر بجوع لكن لا شهية لدي، أتابع سيري عبر الصالة نحو غرفة النوم، أرقد في فراشي أرقب السهم الضوئي القادم من الباب المفتوح، أعلم أني لن أستطيع النوم إلا إذا اغتسلت لكنني لا أستطيع مع كل هذا الشعور بالتعب، أفكر في أن أغسل جسدي فقط الذي لا يأخذ نصف ما يأخذه شعري الطويل من جهد، لكنني أدرك أيضاً أنه بدون أن أغسل شعري لن أشعر أنني اغتسلت ولن أتمكن من النوم، أذهب إلى الحمام مستسلمة للاعتناء بهذا الشعر وبهذا الجسد.

أعود إلى الفراش، ولكن النوم لا يأتي، ربما لم أتعب اليوم بما يكفي لأنام، أفكر في كتاب لكنني أتراجع عن الفكرة سريعاً، أخشى

فكرة أن تصبح الكتب هي المنفذ الوحيد لخروجي الوهمي من هنا، أن تصير الكتب هي عالمي، أفضل الموت قبل حدوث مثل هذا الشيء، أن أجد نفسي منغمسة في حيوات لم أعشها وتجارب لآخرين لم أعرفهم، أن يمتلئ رأسي بحكايات تعود إلى أعوام وقرون خلت، أن أحتفظ بداخلي بجمل ولحظات لن أعيشها، أن أحيا حياتي كأحلام لن أتذكرها.

بقيت مستلقية على فراشي أفكر كيف وصلت إلى الجوفار، هل ضللت سواء السبيل؟!... وإلى أين كنت أسعى؟!... هل كنت أقصد الطريق إلى هنا؟!... أم أنني قد دفع بي دفعاً؟!... أم أنني إلى هذا المكان أنتمي؟!... متى ينتهي هذا الكابوس المطبق؟!... كم سأبقى؟!... متى الخلاص؟!... أؤمن أنه لا أحد سواي بإمكانه مساعدتي، إلا أنني أصبحت مستعدة لفعل ما كان يوماً أقسى شيء على نفسي ولا يزال، الاعتراف بالعجز، بالحاجة، البوح بطلب المساعدة، لكن ما فائدة هذا التنازل العظيم مني، هنا لا أحد يساعد، لا أحد ينظر، لا أحد يسمع، ولا أحد يطلب المساعدة، لعلمه بأن الآخر لن يساعده، ولا تظنوا أن هذا الآخر لن يساعده بدافع من لا إنسانيته لا سمح الله، لا ولكن كل ما في الأمر أننا في الجوفار.

كل من يدخل إلى هنا، يعلق في حبائل معقدة، توجد هنا قوانين، صحيح أنه لا يوجد من يقيدنا، ولا يوجد من يعاقبنا إذا نحن خرقنا القوانين، وهذا لأننا لن نخرق القوانين أصلاً، ليس لأننا نعشق تلك القوانين، أو لأننا نخشى العواقب، فقط لن نخرقها لأننا لا نستطيع، وذلك هو القانون الأعظم الساري، قانون عدم القدرة.

هنا لا يتذكر أحد متى كان قادراً على فعل شيء ما، وكل من رأيتهم هنا لا يذكرون كيف أتوا، يذكرون القليل مما كان من قبل، ولا يعرفون أبداً ماذا سيكون بعد ذلك، هل سيتمكنون من الخروج أم ستفنى الأعمار هنا بحثاً وقلقاً وخوفاً.

وأكثر ما يؤرقنا حقيقة هو أننا هنا تواجهنا جميعاً مشكلة الأعمار، فنحن لا نسترد أعواماً مقابل تلك التي نقضيها هنا، وأنا لا أمل لدي في الموت سوى الموت الآتي بأمر من الله، أن أقطع العمر إلى أن أعود غير صالحة للحياة، لا مرض يشغلني عن الألم هنا، فلا أنشغل بآلام المرض عما أعانيه، كما أنه لا أحد هنا تربطني به أية علاقة إنسانية كي أنشغل به، لا أحد هنا بحاجة إلي كي أشفق عليه فأنشغل عن آلامي لبعض الوقت من أجله، وأحس لبعض الوقت بالرضا الناتج عن إحساسي بأنني في حال أفضل منه وأنني أنا من أقوم بالعناية والمساعدة.

لا لم يكن هذا أبداً حالي، فأنا هنا أتفرغ لنوع واحد من الألم، فلا أنظر إلى أحد وأسأل لماذا هو أقل ألماً، فأتسلى قليلاً بمشاعر الحقد، ولا أنا أنظر إلى سواي فينفطر قلبي لألمه الزائد، فأنشغل بحزن إنساني عليه، لا يحدث شيء من هذا، لا كره، لا حقد، لا عطف، لا رحمة، هكذا أعيش هنا.

تسلطت علي الأفكار، تيقنت من عدم قدرتي على النوم، تركت فراشي وخرجت من داري أسير وأسير ولا أتوقف عن السير، كنت أحدث نفسي، يجب أن أضاعف من تركيزي، وأن أمنع الأفكار المحبطة والمثبطة للهمة من أن تسيطر على ذهني، يجب ألا أسمح لنفسي بأدنى خطأ، ربما تودي بي أقل هفوة إلى البقاء في هذا المكان إلى الأبد، ويا لها من حياة قاسية هنا.

لذا يجب أن أحترم قوانين الحياة هنا، ويجب أن أنتظر بمنتهى الصبر، وفي نفس الوقت يجب علي ألا أتوقف عن التفكير، بي حاجة أساسية وملحة للخروج من هنا، ربما أكون قد كسبت إدراكاً حقيقياً عن نفسي هنا وعمن أكون، لكن ما أصعب أن أحكم على حياتي وأنا على حافة الجوفار، أتدلى على حدود الحد الأخير، أتوسل باكية راكعة من أجل الخروج، أنا هنا أضعف من ذبابة.

يجب أن أمتلك الشجاعة كي أتمكن من مغادرة هذا المكان، كنت أردد تلك الكلمات وأنا أدرك أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً جيداً ونافعاً. كنت مضطربة اضطرابا شديداً، كأن شيئاً ما انتزع مني، ولكن تخونني الذاكرة، أعلم أنني يتوجب علي أن أجاهد من أجل الخروج، تأسيت لنفسي لأني لا أستطيع الوصول.

قبل بضع سنوات، لا أدري عددها على وجه الدقة، لم يعد أي شيء يبعث المتعة في نفسي، والآن أنا هنا، لا أدري متى سأخرج، بل أنا لا أدري إن كنت سأخرج أم أنني باقية، أنا هنا محاصرة، مطوقة، مسورة بأسوار عالية، من المؤكد أن بها أبواب، ومن المؤكد أنه هناك مفاتيح لفتح تلك الأبواب، ومن المؤكد أن هناك من يتحكم في تلك الأبواب ..... أحتاج دائماً إلى شيء يلهيني، يوجد تاريخ شخصي كامل من الأحداث واللحظات في ذهني، أحتاج شيئاً معادلاً للصوت الحارق في رأسي، الذي يخرج بكل ما مضى في رأسي دفعة واحدة بينما أنا أفكر بالمشكلة الماثلة أمامي.

أنا بمفردي، أسير، لا تشغلني الوجهة التي أقصدها، يخيفني احتمال نفاد الصبر، وتوقفي عن المحاولة، لا أنقطع عن التفكير في ذلك الاحتمال، هكذا يصير، تجري الحياة بشكل خفي، تفسد تدريجياً، أسير في الشارع العريض الموصل إلى الجسر، أقترب بسرعة من الجسر، أبعد عن ذهني تلك الأفكار التي انشغلت بها طوال ليلة أمس، ماذا لو نفد صبري؟ تتكرر الأفكار عشرات المرات، تتكرر ... تتكرر ... حتى أظنها تسري في دمائي، أندفع بغير وجهة، أحاول أن أتدبر أمر إسكات صوت تلك الأفكار التي تخدش روحي، وتحدث اختلالاً في نفسي، أصرخ في كسر لتقاليد الصمت.

أواصل انطلاقي منتشية بالصراخ، الهواء البارد يلامس وجهي، تبدو لي تلك الطريقة مجدية، أسير إلى الأمام لا أنحرف يميناً ولا يساراً، إلا أن الصراط لم يكن مستقيماً، ظل هو من يجرفني إلى اليمين

وإلى الشـمال، كنت أظنهما متوازيين في أول الأمر، ولكني اكتشـفت خطأ ما ظننته، عاودتني الأفكار، تساءلت، ما معنى أن يتخذ هذا المكان صفة الوجهة النهائية؟ ...

أتتنـي رغبـة فـي أن أكـون معـه، معه يصير العـادي خارقاً، فينزاح القلق لبعض الوقت، أقطع شـوارع لا أسـماء لها، أقف وسـط سـاحات مجهولة، أذهب نحو ذلك المسـجد ذو المئذنة الصامتة، اتجهت دون انتبـاه وانطلقـت لا إراديـاً نحـو المسـجد، كان أمـراً مزعجـاً حقاً، ذلك الحـارس الـذي ركـض نحـوي يمنعني من الدخـول، ابتعدت وأنا أفكر أن شيئاً خطيراً كان يمكن أن يحدث، وجدت لحسن الحظ، مكاناً لا يبعـد كثيـراً عـن المسـجد، وقفـت أتأمل هذا الرجـل دون أن يراني، لم يبـد لـي مريحـاً للقلـب، مكثـت في مكاني أنصت إلـى همهمات خافتة تصدر عنه... ربما كان يترنم.

تابعـت سـيري، نسـيت أمـر ذلـك الحـارس، تتلاطـم الأفكار في رأسـي، أتسـاءل، مـا حاجتنـا لمـكان، لمـاذا نبحث دائمـاً عن مكان لنا، مـكان يخصنـا، لـم نسـعى دومـاً أن نمتلـك ولـو متراً مـن تلك الأرض وإن كانـت لندفـن بهـا، نبحـث عـن وطـن، عـن غرفة، عـن مكان ثابت في فراشنا، فحين يشاركنا أحد الفراش فنخبره أن بإمكانه فقط أن ينام فـي هـذا الجانـب أو ذاك حيـث أن الجانـب الآخـر هـو مكاننا الذي لا نستطيع النوم إلا فيه، يصل بنا الأمر إلى مقعد أمام التليفزيون، ندخل إلـى القاعـة فـلا نتوجـه إلا إلـى ذلـك المقعـد وكأن المـكان لا يحتوي مقاعد أخرى.

مشغولة أنا بالمكان، فأنا كل مشكلتي هنا يمكن أن تحل لو عثرت علـى مـكان، نعـم، لـو توصلـت إلى مكان أحـد الأبواب، تلك الأبواب التـي حاولـت طـوال تلـك الأعـوام كلها أن أكتشـف مكانها، لم أصدق أنها غير مرئية، هكذا بدا لي الأمر، حاولت البحث عن خارطة للمكان، استقصيت، سـمعت روايـات مختلفـة عـن اختفـاء الخرائط، وسـمعت

روايات أخرى عن أنه لم يكن هناك خرائط في الأصل.

يوماً أمسكت بقلم رصاص، لأرسم أنا الخارطة، نعم كنت قد اتخذت قراري، على الأقل أستطيع أن أضع على الورق معالم شبه محددة لبعض الأماكن التي جلت بها كثيراً وعرفتها، أخذت أخطط ببضع ضربات من القلم، حددت التل، والساحة، والجامع الكبير، وداري، وذلك الجرف الحجري، وتلك الكتل الجرانيتية، والمغارة التي تخيفني.

في البداية شعرت بأنني قادرة على الاستطلاع وعلى الوصول إلى حل، إلا أن عمل تلك الرسوم التخطيطية يصبح في كل يوم أكثر تعقيداً، وأنا في كل يوم أحاول جاهدة أن أمتلك مهارة النظرة المحدقة التي تستطيع أن تنظر إلى أي شيء ثم تدونه وتعيد رسمه، أحاول أن أرى تلك النقاط المحددة، وأن أرى أكثر الخطوط دقة، أحاول اكتشاف خطوطاً ربما تكون مدفونة تحت سطح الأرض، وربما تكون غير مرئية، كنت أجهد نفسي في تلك الرسوم علني أصل إلى مكان أحد الأبواب.

كنت أجلس في كل يوم متحمسة أمسك بالقلم، أخطط بعض المنحنيات وبعض الخطوط المنكسرة أو الحادة، إلا أنني وإلى الآن لم أستطع العثور على باب واحد من هذه الأبواب التي بت أصدق أنها غير منظورة، كما أنني صرت لا أملك أملاً كبيراً في التوصل إلى شيء، وبت أرى أن هناك خللاً عظيماً في ما أفعل، فأنا لا أتبع خطاً مستقيماً واضحاً في التفكير، كما أنني كثيراً ما أخشى الخوض في اكتشاف بعض الأماكن، فمن العبث إذن وضع رسوم كهذه.

أتابع سيري وتبقى الأفكار تلاحقني، أكتشف بناية صامتة لم أتوصل إليها من قبل، تبدو وكأنها مهجورة، تولد في رأسي فكرة تتطلب جرأة أكبر مما يتوفر لدي، ماذا لو دخلت إلى تلك البناية، وقضيت بها

ليلتي، من يدري، أية أسرار يمكن أن يبوح بها ذلك الصمت، قلت لنفسي إنه ليس هناك أسهل من ذلك، وإنه ليس علي إلا أن أستعيذ بالله وأستعين به وأدخل، ربما أكتشف أمراً ما في تلك البناية التي لم أكتشفها من قبل، إلا أن الأمر يتطلب قوة القلب والشجاعة، يجب أن أعتبر الأمر وكأنني في داري، نائمة في فراشي، وأن ما أنا بصدده الآن وما سأواجهه هو مجرد حلم من تلك الأحلام التي تراودني، لن يختلف شعور الفزع في الداخل عما أحسه من رعب وفزع بسبب أحلامي، وماذا إذا فزعت؟ سوف أصرخ بكل قوتي وأخرج كل الفزع من جوفي، سوف أركض وأركض وأركض إلى داري، هكذا كنت أحدث نفسي.

وقلت لنفسي أيضاً أنه لا يوجد سوى احتمالين، إما اكتشاف سيغير كل شيء، وإما بعض من الخوف ربما يلازمني لبضعة أيام، المهم أنه ليس هناك خطر حقيقي يمكن أن يواجهني، لذا فالأمر يستحق عناء المحاولة، والخوف والفزع ثمن ليس غالياً في تلك الحالة، ثم فكرت في محاولة مني لتخفيف الأمر إلى أقصى حد ممكن، ماذا يمكنه أن يخيفني، الظلمة، لم أعتد عليها بعد إلا أنه يمكن احتمالها، خائفة أن ألاقي عفريتاً أو جنياً من أرواح الهوة السفلى، ربما ألاقي بعض الحيوانات التي لن أتمكن من رؤيتها، ربما قطط، كلاب، خفاش، عناكب، ربما يتعرض جسدي لبعض الأذى...

فكرت أيضاً أنه علي أن أتوخى الحذر، لكن كيف، ماذا يمكنني أن أفعل كي أوفر لنفسي درجة من الحماية في تلك الظلمة. فكرتي الجريئة سرعان ما مضت مثلما جاءت، وأنا الآن لست بداخل المبنى، إنما أنا في فراشي، بعد أن عدت مستسلمة إلى داري.

لعنات...

كيف أعطيك شكلاً أيها المكان؟!... أيها الكابوس، كيف أصفكم يـا من تستحقـون كل الشتائم واللعنات؟!... يا من تجتثون معدن الإرادة مـن نفوسنـا، يـا من تغـذون فينا الحمـق والضلال، يا من تجعلونـا نتراجع ونتراجع ونتراجع حتى ما يعود لنا وجود، يا من بسببكـم غـاب عنا كل شـيء... غابت عنا الذاكـرة... غاب عنا المنطـق... غـاب عنـا الرجال... غـاب عنا الخبـز... غاب عنا الفرح... غاب عنا النور... غاب عنا الحق...

هل مطلوب منا أن نقهر الصعب؟ أم مطلوب منا أن نقهر المستحيل؟

نحن الآن في الجوفار، وهو ما لم نظن يوماً أنه سيكون، لم نرده، لـم نرفضـه، ولـم نخشـه، لـم يكن يقتـرب من دائرة الممكن أو المتوقع التي نرسمها حول أنفسنا، أما الآن وقد صرنا في اللامتوقع واللاممكن، الآن فقط نرفض الجوفار، ونخشاه، ونلعنه، نحاول الفكاك، نسعى إلى الخروج، نفشل في كل يوم، نعجز، يسري الوهن في الأرواح.

تلك الأبواب اللامرئية، تحول دون خروجنا، منذ سنوات ونحن هنا قابعون، نحاول في كل يوم، ونفشل في كل يوم، هل سنألف الجوفار ويستقر حالنا به، هل سنظل في تلك النقطة التي نحن بها الآن؟ نسعى نحو البداية يوماً ويوماً نسـعى نحو النهاية، لكن لا بداية للجوفار ولا

نهايـة لـه، صحيـح أننـا نؤمـن بأن لكل شـيء نهايـة، إلا أن هذا ما يبدو لنا، ربما تغير ذلك وهو ما نأمله جميعاً.

تلك الأبواب الضخمة العصية، تلك الأبواب التي لا نراها، حتى صـار بعضنـا يشـكك بوجودهـا أصلاً، وصـار بعضنا ينادي بأنها محض أوهـام صنعناهـا كـي نبـرر عجزنـا، وكي نمنح أنفسـنا بعضـاً من الراحة والتسـامح مع حقيقة ضعفنا العظيم، إلا أن هؤلاء أنفسـهم مازالوا في الجوفار إلى الآن، لم يخرج أحد منهم.

لكنهـم لا يكفـون أيضـاً عـن تلـك النداءات والأفـكار التي تؤرقنا وتثيرنا إلى أبعد الحدود، فمن ناحية هي تهدم أسـاس المشـكلة التي نواجهها، وفي نفس الوقت لا تدلنا على سبيل، ولا تدلنا على مشكلة بديلـة، فهـم يدعـون بعـدم وجـود البوابات، ونحن قد عشـنا هنا أعواماً ندرك جيداً ونشعر بوجود تلك البوابات، صحيح أننا لا نراها، إلا أننا نعلم علماً يشبه اليقين بأن تلك البوابات هي التي تحاصرنا وتدفع بنا دائماً داخل حدود الجوفار، لذا فقد عشنا أعوامنا هنا نحاول الوصول إلى تلك البوابات، نسعى، نجهد، تارة يحدونا الأمل، وتارة نيأس، إلا أننا نسعى.

أمـا حيـن يأتـي هـؤلاء قائلين بأن ما نسـعى لمواجهته وتخطيه هو مجـرد وهـم لا وجـود لـه حقيقـة، وأننـا قـد صنعنا وهماً وسـعينا طيلة تلـك الأعـوام لمواجهـة مـا هـو ليس بكائن، فهم يكونون بذلك أقسـى من الجوفار علينا، يقتلون عقولنا، ويخمدون أرواحنا المتعبة.

إلا أنه لا يوجد منا من لم تأخذه أفكارهم ولو لبضع ساعات، لكن لا شـك أنها كانت من أسـوأ سـاعاته هنا، حيث يكون السـؤال القاتل، ماذا فعلاً لو أنه لا توجد بوابات، وأن تلك البوابات التي نحاول السعي نحو الخروج منها هي بوابات وهمية، من أين يكون الخروج إذن؟!... لابـد للخـروج مـن مـكان؟!... أين هذا المكان؟!... وإذا لم يكن هناك

فعلاً تلك البوابات فلماذا لا يمكننا الخروج؟!... بتنا نخشاهم ونرفضهم ونتمنى لو خرجوا من الجوفار، لكننا لا نستطيع إخراجهم، وهم أيضاً لا يبدو أنهم سيتمكنون من ذلك يوماً، لذا صار بعضنا يؤمن بضرورة التخلص منهم هنا في الداخل.

وها نحن هنا، نخوض في غمار الحكايات المشوهة الخاطئة التي تـروى عـن الجوفـار، نتمنـى لو نفتح ذلـك الباب الأصم وننزع الرتاج، إلا أن البوابات مقفلة جيداً ولا تزال محكمة الإغلاق، ولا جدوى من سـعينا، سـنهزم أبداً، ولن نمنح يوماً تصفيق الثناء والإعجاب، وسـوف تكـون الحصيلـة كمـاً مـن الجروح لن تكفي الأعمار لعلاجها، فسـوف نحزن حزناً شديداً عندما نعجز عن تحقيق الأماني في الرحلة الطويلة الممتـدة، ولسـوف نحـزن حيـن نجتهـد فوق طاقتنا، ثم نهوي سـاقطين منقطعين الأنفاس.

لا نعرف...

مـن يحدد لنا المسافة والاتجاه ولو بالتقريب، فقد اختلطت علينا الاتجاهات وضاعت المسافات، ونحن لا نعرف كيف دخلنا هذا المـكان ولا نعـرف كيف يكـون الخروج منه، أموجـود هو حقاً الجدار الذي يحطم؟ من يملك المفتاح إلى قلب الجوفار ونظامه السرمدي؟...

ما من باب يفتح...

في تلك الليلة، كنا ننتظر وسـط الجموع، خروجاً مزعوماً سـرت إلينـا أخبـاره، كان يسـتند إلـى جـدار عنـد الجانب المضـيء، ربما كان قريبـاً مـن البوابـة، أمـا أنـا فكنت أحاول الاقتراب بغية الوصول، كنا في فـراغ مائـل إلـى اللـون الرمـادي، كان يحيط بنـا بلامبالاة فيزيدنا غوصاً فـي أنفسـنا، أمـا أنـا فكنـت أرزح تحـت ضغط عميـق آملة في تصحيح مسـار روحـي إن تمكنـت مـن الخـروج وكنـت أفكر فعلاً أننا سـننجو، امتد بصري نحوه، التقطته عيناي، أما هو فصار لا ينظر إلى أي شيء سـوى عينـي، تقـدم نحـوي، سـألني كـم لي من الأعـوام هنا، ولما علم بأننـي أبـدأ عامـي السـابع، أخبرنـي أنـه لـم يعد يذكر عـدد ما قضاه هنا من سنوات، سألته:

- هل تعتقد أننا سنتمكن من الخروج بعد قليل، ربما الليلة ربما غداً، هل تعتقد بإمكانية الخروج أصلاً؟...

لم يجب وصمت للحظات، ثم سألني:

- هل ترغبين حقاً في الخروج؟

لم أجب، وبدا وكأنه لا ينتظر جواباً، أردت أن أجب، أن أخبره بمدى رغبتي في الخروج، أنني أحيا من أجل الوصول إلى تلك اللحظة، أنني لا أريد شيئاً سوى الخروج من هنا، وأنني قد بذلت الكثير واجتهدت قدر ما استطعت ولن أتوقف، أردت أن أخبره أنني عانيت كثيراً بسبب رغبتي في الخروج من هنا، أنني كدت أفقد إيماني، لولا رحمة ربي بي، بكيت وتمنيت لو تمكن من الشعور ببكائي، تمنيت لو رأى دموعي، فيسألني ويطلب مني البوح، فأروي له عما كان. تمنيت لو ضمني إلى صدره وكفى. نظرت إليه لأجده وقد بدا عليه بعض الإعياء.

عندما تطوعت لمساعدة هذا الرجل المسن، الذي تعدى عمره السبعين عاماً، الوسيم على الرغم من سنه وحزنه الظاهر، لم يكن لدي أية مشاعر خاصة تجاهه في تلك اللحظة بالتحديد، وعلى العكس من ذلك، فما فعلته كان انقيادا لمشاعر الشهامة والغيرية اللتين كما نعرف جميعاً تعدان أفضل سمتين فينا، فنحن قوم ننعت دوماً بالطيبة، الطيبة تلك الكلمة التي لا تحصر معانيها، فأنا أشبهها دائماً بالروح التي نشعر بها لكننا لا نراها ولا نحدها بتعريف أو صفات محددة، عرضت أن أصطحبه إلى داره، وقبل هو بسعادة ارتسمت على وجهه المتعب، كان هو أول من تحدثت إليه في الجوفار، وهو ما لم يحدث طيلة السنوات التي قضيتها هنا، كنت أعلم أنه مجرد رجل مسن بسيط لا أمل له في الخروج، ولا أمل منه في مساعدتي على الخروج من هنا.

في الطريق إلى داره، أخبرني أنه يتعرض للاستغلال من قبل المسيطرين الحقيقيين على الجوفار وأنهم يستفيدون من عوزنا نحن المساكين، أخبرني أنه في نهاية المطاف لا فرق كبير بين الموت هنا أو الموت خارج الجوفار، بدا منهكاً يتلعثم ويترنح، لم يبدأ في التحسن

إلا عندما اقترب من بيته، ويمكن للمرء أن يقول بدقة، أن كل منا وعلى الرغم من كل شـيء لا زال يشـعر ببعض الراحة في بيته، دخلت إلى داره، صالة نظيفة ومنظمة، جلسـت على أريكة قبالة التليفزيون، أبدى ترحيبه بي ورأيته يتحرك بنشاط نحو المطبخ، أعد الشاي وقدمه لي مع بعض من البسـكويت، وجلس بجواري ليتحدث، وجلسـت أنا أسـتمع إلي هذا الرجل.

كان يروي لي عن الجوفار وعن أنه في البدء، عندما كان لا يزال بالإمكان عد الموجودين هنا، وحيث كان الألم يجعل الجميع شركاء في التعاسة، كان بوسع كل منهم أن يحب الآخر وأن يعطف عليه ويواسيه ويسانده وأن يغفر له أخطاءه، ولم يكن يتعذر التفهم والغفران حتى في الأخطاء الكبرى، ورغم الألم والأحزان والهموم لم يكن يتعذر التحلي بالصبر، وأخذ يروي لي ذلك المسن أن الصبر كان متوفراً، فكما كانت الأحزان مجانية، كان الصبر مجانياً هو الآخر، فلم يكن هؤلاء التعساء المساكين يعانون كما نعاني نحن الآن هنا.

كمـا أطلعنـي علـى ملاحظـات دونهـا ترجع إلـى بداية قدومه إلى الجوفار، والغريب أنني حين قرأتها وجدت أنه كان يشعر بالرضا، وأنه اكتشف أن المكان أقل قبحاً مما كان يتصور، إلا أنه كان يشير إلى غرابة تخطيط المكان، وأنه كان يبدو لأول وهلة عادياً، إلا أنه اكتشـف بعد ذلك أن ما يرى يختلف عما هو كائن.

ودعته بعد تلك الجلسة التي لم تطل كثيراً، قبل جبيني وودعني بابتسامة ممتنة، وبعد مضي يومين، قلت لنفسي أود لو أعرف ماذا جرى له، رغم أنني في هذه المرحلة عديمة الفائدة والحيلة، لكن ربما أستعيد نفسـي ذات يـوم، ولذلـك يجـب أن أبقـى علـى تواصل معه وعلى علم بأحواله، وعندما يكون بوسعي الخروج فلن أتركه هنا، هكذا قررت.

مغاليق...

مؤلمة هي الحقيقة، ومؤلمة هي الأمور التي نجهلها ونود لو نسبر أغوارها، نود لو نكتنه مغاليق الجوفار، أن نكتشفه ونكشف الحجب عنه، لا يتوقف نبض السؤال، نود لو نذهب إلى حيث يخلق المجهول، إلى حيث تولد الأيام.

وكأن العالم ينتهي هنا...

أحضرت طعاماً ودخلت إلى داري وأغلقت الباب جيداً خشية أن يصل إلي أحد، كنت أرغب في أن آكل إلا أن الوهن منعني من ذلك، استغرقت وقتاً طويلاً، كنت أحلم أن أنام كميت وكلنا نعرف كم هو عميقاً نوم الأموات، إن نزهة بسيطة إلى المقابر تثبت لنا ذلك، أما أنا فأنام كنصف مدفونة، أنتظر، لا أعرف أي استيقاظ أنتظر، مهما يكن فإن لكلمة الاستيقاظ قوة سحرية، لا سيما عندما يكون الجوع شديداً، ذكرتني حركة أمعائي الغريزية أنني لم أفعل بعد ما يجب أن أفعله وأنني لم أمس طعامي، أفتح الأكياس البلاستيكية الواحد بعد الآخر، يفوح كل كيس بما يحتويه، تمتد يدي مرتجفة إلى شرائح الخبز، الجوع يؤذيني والطعام يؤذيني.

في غرفة النوم، طار النوم تماماً، مازلت أستلقي، ومازال الفراش قاسياً، أتقلب طوال الليل، يتسلل الأذى إلي عاصفاً بقلبي، تارة أستسلم وتارة أقاوم، أفكر في أن أخضع تماماً، أفكر أن الخضوع سيريحني

ويخفف من عبء ثقلي، المقاومة تزيد من الشعور بوطأة الألم، فمن يقاوم يقابل بضراوة أكبر بكثير، أما من يذعن فربما يجد بعض السلام والإحسان.

قاومت أنا فتلقيت ضربات كانت أكبر من طاقتي على الاحتمال، كأن يداً ثقيلة تهبط فوقي فتحبط كياني، فأخضع لبعض الوقت، وخلال هذا الوقت لم أجد راحة أيضاً، صحيح أنني تخلصت من تعب المقاومة، ومن جهد التفكير في الحلول والسبل الخفية، إلا أنني لم أتخلص من عبء الرغبة الحارقة في أعماقي والتي تدفعني إلى الخروج من هنا، ولم أتخلص من رعب فكرة البقاء هنا وانقضاء العمر وأيامه في هذا المكان، لم أتخلص من ثقل الوقت ومعاناته، في المقاومة كان الوقت يمضي في الفعل، وربما كان الفعل في حد ذاته يريحنا بغض النظر عن التوصل لنتائج مرضية. كان بذل الجهد يشعر المرء ببعض الرضا عن ذاته، أنه على الأقل قد حاول وسعى.

تستمر الأفكار في ذهني وتستمر، أذهب في النوم، أرى أنني أطل من نافذة ما، أمد البصر إلى ما لا أرى سواه، تبدو الأرض منظورة لعيني، وكأن الله صاغها من بلور، أرى الأرض وكأنها القمر، لكنه ليس بقمر السماء الذي يضيئها في أوقات معلومة، ليس بالقمر الذي تنتثر النجوم من حوله، ليس بالقمر الذي يداعبه السحاب ليلاً.

أدقق النظر، أوقن أنها الأرض، أراها بكامل استدارتها، تتجسد أمام عيني، مضيئة تبعث نوراً كنور القمر وبريقاً كبريق شعاعه، أعجب كيف لا يؤثر كل هذا النور في ما يحيطها من ظلمة دامسة، يأخذني النور وأنسى الظلام، يتعلق بصري بوجه الأرض فلا أحيد، تبدو ساكنة إلا أنني أستشعر حركة، تبدو جامدة ولزجة، أتوقع سقوط المياه التي أراها تموج أمامي لكن شيئاً لا يسقط، تظل الزرقة تموج ولا تكف، فيما عدا الزرقة يبدو كل شيء جامداً ثابتاً لا يتحرك، لا شيء يدور...

كنت أحدق في الحد الفاصل بين الخضرة والصفرة، بين زرع الوادي وجدب الصحراء الأبدي، بهرت بما أراه من خضرة ذات درجة من الخصوبة الريانة، هذا الأخضر الغزير اليانع الذي لم ترى العين مثله، بدا وكأن هناك صراعاً ما بين الأخضر والأصفر، وأن كل منهما يحاول أن يتعدى الحدود الفاصلة، وأن كل منهما يحاول أن يطغى، تمنيت أن يطغى الأخضر.

أعود ثانية إلى النور الذي يبعث في شعوراً بالجلال والرهبة، خاصة حينما يتوجه بصري إلى البياض في الأسفل، لحظات سحرية لا حد لجمالها، كنت مذهولة مبهورة برؤيتها على هذا الشكل، يطول وقوفي، أفكر في الدخول لإحضار وسادة صغيرة ناعمة تقي ذراعاي خشونة إطار النافذة، تتجمد أطرافي، ترتعب جوانبي، أروع، ارتعدت فرائصي حتى ما قدرت على الحركة، كيف لي أن أبصر الأرض بهذا الشكل؟!... لم يطاوعني صوتي حين أردت أن أصرخ، احتبس صوتي في نومي فانتفضت فائقة في فراشي وقد حرر صوتي وسمعتني أصرخ، أين أنا؟!...

في الزمن المكسور، نسند قامتنا على الريح، ننتظر بعثنا البعيد...

هل ينتهي المقام هنا؟!...

ينهض الرجل المسن، دائخاً ومتهالك الساقين، ليفتح الباب، يعتذر لي على تأخره علي وجعلي أنتظر، يتذمر من عيشه وحيداً، يشكو من الأنفلونزا التي تلازمه من خمسة أيام، يصطحبني إلى غرفة نومه، يندس بين الأغطية، أجلس بجواره، أخبره بأهمية الراحة في مثل حالته، طلب مني أن أصنع له كأساً من الليمون الدافئ بالعسل الأبيض، وحين أحضرته إليه، سألني:

- كيف حال جميلتنا؟
- كيف ترى الجمال في مثل هذا الجو التعس؟
- طالما يوجد جمال، فأنا أراه.

حين انتهى من الليمون، تدثر حتى أنفه، وبدا عليه أنه يعاني إرتعاشة خفيفة، كان يحاول كبحها، وبدا عليه كذلك بعض الارتباك، سألته كيف تشعر؟

- أفضل، تناولت الكثير من الأدوية، لكنني سأتوقف عن تناولها.

لم أصدق ما أراه أمام عيني، هذا الرجل الذي يهب من فراشه واقفاً، لا يأبه لحالته الصحية، راغباً في الخروج إلى الساحة، كان يرتجف من الهزال ومن الأنفلونزا، زاد بروز لحيته الشائبة مظهره تعاسة،

بدا وكأن شقاءه مريضاً وحيداً في بيته غير كاف بالنسبة إليه، يرغب في الخروج من بيته ليضيف إلى شقاءه وأحزانه من الأحزان التي يمتلئ بها الجوفار، أخبرته أنني أمنعه من الخروج إلى الساحة وهو في هذه الحالة، لم يكترث وبدا وكأنه لم يسمعني أصلاً.

خرج الرجل المسن، يهتز جسده بحركة خفيفة، لحقت به، سرت وراءه دون أن يراني، تذكرت كيف أخبرني أنه لطالما كان مطيعاً ومنضبطاً، وأنه كان فخوراً بذلك، وأخبرني أنه كان أكثر فخراً بأنه لم يكن يوماً ذليلاً ولا دنيئاً، لم يتلفظ مطلقاً بأي "تملقات لرئيس"، كان يرددها بزهو دائماً.

بدأ ينتابه بعض الدوار، لكنه لم يتورع عن تسلق ذلك التل، لدي الآن قلق آخر، جزع آخر، أتمنى أن يبقى هذا الرجل على قيد الحياة، ربما لو انتهت حياته يكون في ذلك راحة له، ربما يغبطه الكثيرون على موته، أنا أحببته، أتمنى له الراحة والسلام، إلا أنني لا أريد فقده، آمل أن أتمكن من الخروج من الجوفار وبالطبع لن أخرج بدونه، سوف أخرجه من هنا، سوف يعيش معي، لن أتركه وحيداً أبداً، بدأ يرتجف بشكل واضح، يدير حديثاً متخيلاً، تلك الأسئلة المحتومة ظل يرددها بصوت مرتفع، أين تلك البوابات؟ أين خبأتها؟ من هو صاحب مغاليقها ومفاتيحها؟...

أخذ صوته المرتفع في الانخفاض إلى أن بدا كما لو أنه يتوسل، نظر نحوي، وبصوت خافت قال:

- أعيديني إلى فراش آلامي.

في فراشه بدا على وجهه إمارات ألم لا يطاق، أخذت أمسح بيدي على وجهه وعلى جبينه وعينيه، ذهب في النوم، وحين توقفت يدي عن ملامسة وجهه، استيقظ مذعوراً. بعد ذلك تظاهر بأنه قد غفا، إلا أن إرتعاشة رموشه فضحت غفوته الزائفة.

من ذا بوسعه أن يعلمنا أن نكون؟...

آن لنا أن نكون، أن نحيا، أن نحيا جمالاً وحقًا، أن نزرع كبرياءنا، أن نطغى على الذل، أن نصطحب الجنون، أن ننهض مفعمون بالحياة، أن نسترد عافيتنا الدفينة، أن نلملم وجودنا وكياننا، أن نمد جسوراً عبر كتل الظلام...

موتنا أكيد وفناؤنا حق

حين تصيب الأقدار هدفاً، تقدح فينا شعلة المقاومة حيناً، وحيناً تخمدها إلى الأبد، إن أخطر الإصابات تلك التي تبقى مدفونة كلغم، تبقى هاجعة، إلى أن يتم إزعاجها فتفجر نفسها ثم تفجرنا، وهذا يعني أننا في خطر حقيقي دائم، وأن الخوف متشبث بقلوبنا.

كنت أتوضع في الجانب الشمالي الشرقي وفقاً لم أرسمه أنا من اتجاهات، أنظر إلى الشوارع الضيقة التي تتفرع من الساحة الكبيرة، كان الهواء بارداً، أرى ملتويات، زاوية عالية موحشة، جدران صامتة، بقيت تحت السماء السوداء أخشى الحركة، أشعر بالأرض تنحدر من تحت قدمي.

ماذا يعني أن نوجد هنا في المستقبل، أن نحكم على حاضرنا هنا كماض، شعرت بضيق هائل في قلبي، وبأن الأرض تسرع تحت بصري، شعرت بأن كل ما نحاول فعله يصبح بلا جدوى، وأننا لا نملك شيئاً، ولن نتمكن من فعل شيء، وأننا محكوم علينا بالعيش هنا،

محكوم علينا أن نقف عند حد الحياة، هجس في نفسي أن من العبث أن نفتش عن الباب بعد الآن، لم أرتح إلى ما يدور في ذهني، أهب من مكاني فأسير مضعضعة الذهن، متعبة من يقظته المزعجة، تمنيت لو أنطرح كالجثة المحنطة.

أواصل سيري على الطريق الشمالي الشرقي، أهبط بضع درجات لم أعدها، أسير باتجاه فيلا قديمة تبدو كقلعة، كتلك القلاع التي يمكن اتخاذها كحصن حربي، كان المكان كله يبدو مدمراً، تختفي بعض درجات المدخل الرئيسي للفيلا، وبعض أجزاء الطابق العلوي مفتتة، الأبواب كلها مفتوحة، تعشش العناكب في كل الأركان والتجويفات، تملأ الفراغات لمسافات طويلة، الأثاث محروق، رائحة دخان قوية لا تفارق المكان على الرغم من الهواء المتصارع داخل الفيلا بسبب الأبواب والنوافذ المفتوحة، الفيلا مسيجة بحديقة طويلة شديدة الجفاف، يحدها حائط صخري يرتفع كثيراً عن الفيلا، المكان كله يتمتع بمظهر حصن حوصر ثم قصف وحرق، حتى التراب هنا يبدو محروقاً.

تقوى الظلمة، تهيمن، أفكر في ضرورة العودة إلى داري، تخرج ضجة من الظلمة، ضجة قوية، أسمع صوتاً عالياً في الجو، كصوت شيء ينحدر من أعلى، كنت أستعد بأعصاب متوترة لتحمل الأوجاع التي أندفع نحوها، وجدت نفسي محاطة بأجسام تتصادم، ووجدت نفسي مدفوعة أركض، أحاول الخلاص، كانت هناك أصوات غريبة تضرب الأرض فتضطرني إلى الركض باتجاهات مغايرة، كنت أهرول وقد استولى علي شعور بالهزيمة، كما كنت أعاني خوفاً مريعاً خلال ركضي، كانت تمزق أذني صرخات خوف وألم لم أعرف مصدرها، كنت أشعر شعوراً مؤلماً بعجزي، كان كل شيء يتلفع بالغموض.

كان ألمي عظيماً، واصلت ركضي في هياج وخوف واضطراب، كنت أحس بقدمي تغوصان في التراب، فأتماسك وأعاود الركض بكل قوة، كانت أنفاسي تتلاحق وصدري يضيق، شعرت بأن خلفي أشباح

تتعقبني، فأزيد من سـرعة عدوي، أسـمع نداء غامضاً يتردد خلفي فلا ألتفـت، يتزايـد ذعـري، لـن ينقذنـي غير الهرب، أركـض لاهثة متطايرة الشعر دون أن أستدير خلفي، لم يكن هناك من يستطيع نجدتي، كنت أحس بالأرض تشـدني إليها وبجسـمي يفرغ من كل قوة، كنت حزينة وأشـعر أني متعبة ومهانة، إلا أنني كنت على اسـتعداد لإكمال التجربة الموجعة، وحين وصلت إلى الساحة، أحسست في قلبي شعوراً مؤلماً بالحياة.

في رحاب العتمة...

نلعنــك أيهــا الجوفار بقوتك القاهرة، نسعى فوق أرضك المريرة، يخدعنــا تاريخك، تضللنــا جغرافيتك، نغوص في رحاب عتمتك، نــارك تجتــاح أرواحنا، وغبارك يتسلل إلى صدورنا كلما نستنشق هــواءك، لا نمسك بليلك ولا بفجــرك، هنا حيث يتوارى الشكل واللون، هنا حيث يتخثر كل معنى، لن نمسك بما يفلت، حائرون على تخوم الصمت، نبحث عن ضوء عميق دفين في نفوسنا، وجود مفكك، في مياه الموت كل شيء يبتعد... كل شيء يتفكك.

حزننا طويل...

طرقت أذني ضجة أصوات مختلطة، على الفور خطر لي أن أطمئن عليـه، ذهبـت إلـى داره وقبـل أن أصـل إلى البـاب وأفتحه، كان الضوء يخرج من الدار، دخلت لأراه جالساً على سرير حديدي أمام التليفزيون، استلقيت بجواره، استدار نحوي، سألته بصوت خافت وأنا أسوي بيدي شعره الفضي الناعم:

– تعبان؟

تنفس بعمق وهز رأسـه، ارتكزت على كوعي واضعة وجهي في راحة يدي اليمنى، وصلتنا نسمة خفيفة من نسمات الليل من باب الشرفة المفتوح، كان السكون مطبقاً على الجوفار، وكنت أحس بالتعب يخدر جسمي، رأيته مغمض العينين، فكلمته برفق:

– نام إذا نعست.

اعتدل جالساً على الفراش، أسند رأسه لدقائق، ثم غطى نفسه باللحاف جيداً ونام، قبلت رأسه ثم قمت وأطفأت الضوء ثم خرجت مغلقة الباب خلفي، كان في الجو برودة خفيفة، استوفيت حقي من المشي وعدت إلى داري، طرقت أذني أصوات ترتفع بشكل غير اعتيادي، لم يعجبني كيف صار داخلاً في حياتي، لا أحس بنفسي مرتاحة، حبي له يولد لدي خوفاً دائماً وقلقاً مستمراً لا ينفك يلازمني، لا أكف عن التفكير فيه في كل لحظة على الرغم مما أعانيه، أخشى في كل لحظة أن أفقده، أحس بأني قد صرت مسئولة عنه، أفكر أنه يجب أن يعيش معي في داري أو أن أبقى أنا عنده دائماً، كنت متعبة، دخلت إلى داري هدأت نفسي وشاغلتها بالأكل ثم فارقتها بالنوم.

وفي اليوم التالي جالسة كنت على سريري، نصف مضطجعة، أقرأ في كتاب لم يبد شيقاً، كان بجواري يدخن سيجارة، عادة قبيحة ما استطعت أن أجعله يقلع عنها، سألته هلا تطفئها؟

لم يجبني ولم أكرر السؤال، وضعت كتابي جانباً، ونظرت نحو السقف، كنت ملولة ومتعبة، شعرت برغبة في شرب القهوة، لحق بي إلى المطبخ قائلاً:

- إني بخير منذ مجيئك إلى دنياي، منذ أن عرفتك أصبحت أنسى أنني أشقى طوال الوقت، أشعر أني في ملجأ أمين، وجودي بجوارك أشعر أنه مهمتي المثلى، أشعر أني بعيد عن ساحة العذاب، لكن لا يعني هذا أنني قد نجوت.

كنت أعد القهوة، وكنت أحس بعجز عن الكلام، الحقائق التي أعرفها لا تمكنني من الكلام، وعندما أحاول أخرج بمعان وتمتمات غير متفقة مطلقاً، إنه يدخن، يمسك بجبينه، يحيط نفسه بكتلة من الدخان الأبيض، يكمل حديثه:

- لم أظن يوماً أن يحمل همي أحد، كنت أوقن أنني لو مت فلن يكون

هناك بشر على هذه الأرض ليقول الله يرحمه.

يتوقف عن الكلام فجأة، كما لو أن فكرة قاتمة قد أمسكت عليه لسانه، أردت أن أقول له أنني أؤيده في المعنى العام لكلامه، في المسحة الحزينة اليائسة التي تصطبغ بها كلماته، في الأفكار السوداء خلف أقواله، لو يعلم أنني قبل أن أراه، كان يعد هو بالمقارنة بحالي، متفائلاً بالحياة أكثر مني، وأنه أكثر شباباً مني، وأن يأسي لم يكن يمثل شيئاً قياساً بيأسه.

إلا أنني صمت، إنني وحتى الآن، حتى وأنا معه، لم أعد أفتح نفسي، أخفي كل اندفاع نحو الخارج، هذا الانكماش عن الحياة لا أنفك أمارسه، لذا عدت إلى كتابي بصمت، هوايتي التي لم أتقنها بعد، الضياع المريح، لم أكن أقرأ، نظر إلي قائلاً:

– أكرمني الله بأن أمضي معك هنا آخر أيامي، وسوف أمضي راضياً إذا مت وأنت تضمينني إلى صدرك.

ألف ذراعي حول عنقه، أرجوه أن يكف ويتوقف:

– ألا ترى ما تفعله بي كلماتك تلك، ألا تقرأ لغة وجهي، ألا تلتقط إشاراتي، ألا تقرأ كلمات أصابعي التي ترتعش كلما طرحت مثل هذا الحديث.

يطوق خصري بذراعيه، أريح رأسي على صدره القوي، أتابع حديثه بدموعي وهو يقول:

– مكره أنا على فراقك بأمر من الزمن.

مـن هـو؟ من هو عدونا الذي لا يرحم؟ من يظلم دروبنا؟ من يهدم رغباتنـا؟ مـن يحطم ذاكرتنـا؟ من يمسخ أشكالنـا؟ من يطفئ فينا الضياء؟ من يلوث نهر الحياة؟ من حكم علينا أن نعيش حتى نهاية أيامنا في رعب لا ينقطع؟ من يرغب في أن تبقى الأشياء في عتمة سرهـا؟ مـن يرغب في أن نبقى نـدور في دوامة الكلام والصدى؟ من يجعلنا نتغذى بالموت في كل يوم؟ ومن يدفعنا في كل يوم إلى أن نتقدم صوب احتضارنا؟... من؟

ماذا يفعل الغضب أمام وفرة الموت؟!...

كان الشارع الذي أسير فيه، مختنقاً بالغبار والظلام الباهت، كان يساورني إحساس غريب وأنا أدخل في حنايا الأزقة الملتوية المختفية المحاطة بألوان حمراء دكناء من كل جانب، أقف ملولة ضجرة متعبة، بعدها تملكني غضب ملعون كأنه نار تشتعل في الأحشاء، وكان أن بدأ الصراخ اللعين، فجمدت في ظلمتي، أخشى التنفس، كنت أصلي بكل جارحة في، وأدعو بصوت داخلي دفين، وأنا أتمنى أن أكون مستجابة النداء، دار بي المكان، فانتفضت واهتز كياني.

في تلك الليلة العسـيرة كنت أصلي بخشـوع مطلق وظننت أنني سأنجو، وأنه سيأتي من يضمني إلى صدره لأرتجف وأبكي في أحضانه، لكن في تلك الليلة العسيرة جداً لم يأت إلي أحد، فظللت أطلق نداءاتي

مستنجدة مستغيثة ملسوعة بغضب عظيم، أعمال ناقصة وأفكار منقوصة تسد علي كافة المنافذ، ولا يوجد تفسير واحد لكل ما يجري، ولا شيء بإمكانه أن يمنحني الأمان.

أحسست كأن هناك من يخاطبني من وراء الصرخات، وأنه يوجد أمر جلل أجهله، إلا أنني كنت أعجز عن التواصل، وكان من الصعب علـي ولا يـزال كمـا يبـدو، أن ألـم بـكل مـا يحصل وأن أسـتوعب كل شـيء، وكان لا زال هنـاك مـن ينفـث صرخاتـه الهوجـاء، لـم يكـن أي شـيء واضحـاً لـي، وكان يجـب أن أمضـي فـي جهلـي هـذا إلـى نهاية المطاف، كانت الصرخات تهاجمني كدبابيس مسمومة تغرس في عقلي، وكنت أتعوذ من الشـيطان كثيراً، بدأت أرى إشـارات كنت أراها للمرة الأولى، كنت أقف لصق جدار خشبي متآكل، أحس بغموض، كانت ثمة إشـارات باهتة، تحثني على البحث عن العلاقة بين التراب والأحجار وبين البشر.

كنت أكاد أنفجر غضباً وخجلا وذلاً، شعرت بأن هناك من يمسك بي ويشدني بقبضته، وأن هناك أموراً خفية تعمل عملها في العمق، تعمل بسرعة خاطفة كي تضرب ضربتها القاضية، وكنت أنا تحت وطأة هذه الأمـور أحـاول الفهـم، كنـت متحفزة وناقمة، وبدأت أشـعر أن نداءاتي تفقد دلالتها، بعد لحظات توقفت توقفاً تاماً عن توجيهها، وكم أسفت لذلك، بدا وكأن كل شـيء كان لي بالمرصاد، كنت أظن السـوء بكل شيء، كنت أرثي لي وأشفق على حالي.

أنـا التـي لـم تصـل حتى إلى أنصاف الحقائق، كانت أبواب الفكر قد انسدت بإحكام، كنت غير قادرة على الاستسلام، وفي نفس الوقت غير قادرة على عمل أي شيء، إلا أنني كنت أشعر أنه يجب التوقف، التوقف عن كل شيء، كنت أقف مأخوذة بما أنا فيه، أتطلع ببصر مرتعش كي أستكشـف الأنحاء حولي، لم يعد هناك ما يحول بيني وبين تلك الضربـات التـي لا رادع لهـا، أخـذت تنـال منـي، من روحي ومن رباطة

جأشـي، تقدمت وكأنني أدفع بيد غير مرئية، سـرت بضع خطوات ثم ترنحت وسقطت على الأرض، لبثت هامدة دون اكتراث، شعرت لأول مرة أن عيني قد ألفت الظلام، كما أحسست ببرودة تمسكني من أطراف رأسي إلى أطرف ذراعي وساقي، أما أذناي فكانت تتلقى باستسلام تلك الصرخات الغامضة المريعة، كنت أشعر بأنني في زمن خاص بي وأنني قد صرت لا علاقة لي بالعالم أو بالبشر، وأن كل أفكاري وهواجسي وارتجافاتي قد مضت دون عودة.

الصمت المرهق

يرهقنا سكوت لم يعد مقدور عليه، ويرهقنا نطق لا ينفع، هل نلزم الصمت لأن ذلك أكثر فائدة؟!... أم نظل نتكلم ونتكلم في جدل مأتمي وسأم باهت؟!...

بلادنا ليست هنا...

في لحظات، ينتفي اليقين، وتنتفي كل إمكانية لدينا، تستقر الغصة في الحلق، ندرك أن الأمر ربما يستغرق سنوات طوالا، يمثل الجوفار أمامنا بلا بداية وممتداً إلى ما لا نهاية، نقاط تتوه، لا يمكن تحديدها، تحتوي المكان والزمان، تثير فينا التوق والحذر، لا نهتدي إليها، وما من إجابة مؤكدة، موجودات تخرج من دائرة البصر، ومحسوسات تغيب عنا، لا وجود للشمس، وصار التمييز بين الليل والنهار صعباً، لا وضوح جلي، وما يبدو واضحاً يصير غامضاً في لحظات، كل شيء هنا يضن علينا بأسراره.

نحاول الوقوف على جوهر الأمر، نسدد البصر، نستنتج أموراً أصبحت يقيناً لدى البعض منا، ولدى البعض الآخر لم تتعدى كونها مجرد تخمينات لم تثبت صحتها بعد، ومن تلك الأمور أن الكل قد أتى إلى هنا مأموراً، لم يكن بوسعه الرفض أو الاختيار، وإلى الآن لا يمكن القطع، وليس بوسعنا إلا التساؤل والتيه عبر استفسارات لا نهاية لها.

نسعى نحو مجهول غير مدرك، نخوض طريق الضلال، نعاني وحدتنا وشدة فردانيتنا، نطوف في وحشة الظلمة وقسوة الانفراد، مدفوعين غير عابئين بشيء إلا إلمامنا بكل ما يمكن أن نلم به كي يعيننا على الخروج، وكلما ألم أحدنا بشيء ظهر له شيء آخر، وكلما ظن أحدنا أنه قد جمع من المعلومات ما يكفي وعرف من الحقائق ما يمكنه من التوصل إلى شيء، كلما ظهرت حقائق شتى لا تنتهي ولا سبيل إلى معرفتها.

وها نحن لا نزال نخشى المفاجآت وبغتات القدر، نخاف لحظات لا تزال في رحم الغيب، يسير كل منا مكسور الخاصرة وحيداً مبتوتاً في مواجهة الخواء، أذل من ريشة، هزيل كالهواء، يصاحب الأنين خطواته واليأس أنفاسه، نتوقع نزول الأذى من حيث لا ندري، نلزم الحذر، لا ندري طبيعة هذا الأذى ولا نستطيع القطع، إلا أن التوجس يهيمن علينا، ندرك أن الكل مهدد، نعرف جيداً أن هناك ما نجهله، وأنه ينتظرنا في صبر وأناة، لن يموت ولن يختفي قبل أن يطالنا.

نطل على مفارق شتى، نسأل، أي المسالك؟ أي الطرق؟ نفكر، نتردد، لسنا بالمنبوذين ولا بالمعاقين، بل نحن مأمورون مرغمون، في تلك الحظيرة التي لا ندرك حتى سر اسمها، يتشظى الوقت، يتوزع العمر ويضيع، في هذا الوطن غير المكتمل تائهون وليس من هداية، بمفردنا تماماً خلوا من كل عون، غيمات عابسة لا تزال تعبر نحونا، ولا زال اليأس يطرح شباكه علينا ويلفنا بنسيجه.

جبن يحتل نفوسنا، لم نبلغ من الجرأة ما يكفي كي نشهر الخناجر، كي نشعل الحرائق وننثر السم في الهواء، لا نجتاز الأسوار، ولا نزحزح الباب الموصد، نعانق وحدتنا في سنوات ثقيلة وأيام هزيلة ودقائق عجفاء راكدة، في أجدادنا القدماء أسماء تثير افتخارنا إلا أننا سوف نمضي بلا وريث ولن نحمل بقايانا إلى أرض أخرى.

إرث ثقيل

نحمـل ثقـل كل الزمن الفائت، ننوء بهـذا الإرث، ولا تزال فأس الزمن على رقابنا، ولا شيء يقدر أن يخلصنا، خطواتنا لا غد لها، نصطدم أبداً بالباب المختوم إلى أن ينثرنا الزمن طحيناً...

تنتهي الحياة حين لا تبدأ...

كان موت الرجل المسن نهاية لفترة عصيبة من حياتي هنا، وبداية لفترة أخرى ستكون أشد وطأة، وها أنا الآن بعد ثلاثة أعوام، أتجول بمفردي بعد أن حرمت ممن أحب، بعد أن أصبحت من التعساء الذين قاسوا ألم الفراق، ولا زال شعور الفراق يصل عندي إلى الذروة فأستسلم للذكرى، أتذكر الغائب الذي فقدته، من بكيت حزناً لدى رحيله، من كان يتوجه إلي كصديقة وحبيبة وابنة، من كانت سعادته تتوقف علي، من كنت أشعر تجاهه بالتزامات إنسانية كثيرة.

ذهب من أحببته في طي النسيان، هذا الذي كان يؤمن بعقم الحياة هنا ولم يعرف الأمل ولم يأبه للسلام كثيراً، مات من كان رغم كل شيء مصدراً لقوتي على الرغم من آلامه وعجزه عن مساعدتي، كان الحب الذي خصني به كبيراً، وحين صار واقعاً ما كان يؤلمني مجرد تخيل حدوثه، اختفى شعوري بالأمان، وحين توقف ذلك القلب عن نبضه، توقف في كل إحساس بالحياة، في لحظة واحدة في تلك اللحظة التي أطبقت فيها تلك الأذرع الغامضة على هذا الجسد الحي، ارتميت

على صدره، على هذا الجسد الذي يرقد بلا حراك، وأطلقت لدموعي العنان، كانت دموع عهد الفراق الذي كان يبدأ في تلك اللحظة.

فـي تلـك الليلـة كنـت قـد ذهبـت إليه في داره، قعـدت قربه على الفـراش، كان شـاحب الوجـه، تظهـر بعـض التغضنات في رقبته وحول فمه، أخبرني أنه لم ينم منذ يومين، وأنه لا يشـتهي الطعام، لا يشـتهي سوى سيجارة يدخنها، كنت أنظر إليه وعلى وجهي أمارات قلق عميق، ران علينا الصمت، كنت أنا على طرف السرير كعصفور حائر، كنت جد منزعجة، وأحسسـت منذ هذا اليوم أنني سـوف أتعود أن تكون أيامي أشد سواداً.

بدأ يعتريه نوع من الجمود، يرقد متسمراً ينظر إلى عيني كان يعرف فيم أفكر في تلك اللحظة، ويعرف كذلك أنني أحبه، ولكن كل منا كان يعـرف أيضـاً أن الحـب لا يتمتـع بالقـوة الكافية التي تمكننا من أن ننقذ مـن نحـب مـن مصيـر محتوم، كان وجهه يعبر عن التعب والخور، كان صامتاً في سـكون خاشـع، طلب مني أن نذهب إلى التل ثم عاد إلى سهاده الصامت، وحين صعدنا إليه، كانت السماء سوداء باردة، والهواء سـاكنا، لم أكن أدري أنها كانت ليلة الخلاص بالنسـبة له، ليلة تخفف فيها من كل الأعباء حتى من عبء تلك الأنفاس المتلاحقة.

نظـرت إليـه لاحظـت أنـه كان شـاحباً شـحوباً غريبـاً، كانت عيناه خائفتين، اقتربت منه، أمسـك ذراعي الأيسـر بشـدة، كان شـبه مغمورا فـي غيبوبـة، وكنـت أنـا أحاول سـحبه نحو الحيـاة، وأحاول أن أحتفظ بـه لوقـت أطـول، إلا أنـه اختـار حريته التي عادت إليه في تلك اللحظة وتخلـص مـن كل العوائـق، وحيـن عم الصمت وعدت لا أسـمع شـيئاً علـى الإطـلاق حتـى صـوت أنفاسـه الضعيفة، علمـت أن هذا الصمت ينذر بالأسوأ، كنت أريد أن أنادي عليه، لكن خوفي من صمت سألاقيه سيزيد الصمت الكائن منعني، كنت بجواره أواجه أكبر رعب عرفته هنا وفقد عظيم.

آلمني أنه مات دون أن يجد من الوقت ما يمكنه من أن يربح الجولة، مات خاسراً، وهكذا افترقنا إلى الأبد واختفى هذا الوجه، وحين كان يستقر في تلك الحفرة المجهولة، كنت أشيع هذا الرحيل بوجوم تام، والغريب أنه كانت لدي رغبة هائلة في الاقتراب من تلك الهوة، كنت أريد أن أرى ماذا يوجد بداخلها، أن أنظر إلى المجهول في عينه وأنفذ إلى أعماقه، وأنا في كل يوم أتمنى أن يجد السلام الذي لم يكن ليجده إلا في الموت فالموت لا يؤلم سوى الأحياء، ذهب هو إلى الكون اللامحدود إلا أنه بقي عائشاً في نفسي، كان غيابه غياباً مادياً، غاب إلى الأبد لكنه لن يموت مرة ثانية، انتهى الألم في حياته، انتهى التناقض...

هذا محض جنون...

لعبة كبيرة تتم في صمت عميق، الجميع يرى، الجميع يعرف، لم نتظاهر بأننا لا نعرف أي شيء، ونحن نعرف كل شيء، لم يجب أن يبقى الأمر سراً؟!...

هذا هو حال الواقع...

لو تكتمل لنا الرؤية...

أسير بخطوات وئيدة، أعبر الشارع، أرتقي الطريق الترابي، أشعة الشمس وظلي الطويل، أشعر بأنفاسي تضيق مع كل خطوة أرقى بها الطريق المرتفع باستمرار، فتباطأت بسيري ونقلت حملي إلى اليد الأخرى، ألمحه يخرج من انحناءة في شارع مقابل يمشي نحوي متعثر الخطوات، كاد في تعثر خطواته أن يصطدم بالحائط إلا أنه اعتدل وتراجع في اللحظة الأخيرة، وكانت تنتابه هزة غريبة مثل من يتلقى لطمة على صدغه.

شاغلت نفسي بما أحمله وأخذت ألتقط أنفاسي وأملأ فمي باسم الله، أسرعت نحو البيت، دفعت بقدمي باب الدار ودخلت مسرعة، ألقيت نظرة أخيرة على ظله المتمايل قرب الحيطان، ارتميت على كرسي في زاوية من المطبخ ووضعت حملي على الأرض، كنت متعبة من السير الطويل، شعرت بقلق غامض في قلبي، ماذا جاء يفعل هنا؟

حارس المسجد ذو المئذنة الصامتة، جلست قرب الشباك أتطلع

إليه، كان يقف في تلك الساحة الواسعة، هذا الرجل المجهول أحاول أن أفهم الكلمات التي يتمتم بها، رأيته يجلس بسكون على الأرض، بين آن وآخر يرفع بصره إلى السماء شارداً ذاهلاً عن نفسه، كمن تختلج في أعماقه مشاعر مختلطة تعتمل في قلبه وتفيض منه، من يكون هذا الرجل، وإلى أين ينتهي، لا أعرف عنه شيئاُ سوى أنه الرجل الذي يجلس دائماً أمام باب المسجد، لا أعرف أفكاره، لا أعرف أمانيه، لا أعرف إن كان يتوق للخروج مثلي أم لا، لا أعرف من يخالط، من يصادق، لا أعرف إن كان ودوداً محباً، أم أنه مؤذ كما يبدو، كان يتنهد بحزن وينظر إلى ركبتيه.

خطر لي أن أخرج إليه، ربما أتمكن من محادثته، ربما يكون هذا الرجل المجهول هو من يملك السر، وربما أجد أنه لا يحمل إلا القليل من المعلومات، على كل حال فكرت أنه يجب أن أكتشف هذا الرجل، ربما حصلت على ما ينفعني، كنت أدفع نفسي للخروج من داري، أشجع نفسي وأنزع منها خوفي وخشيتي من هذا الرجل، اقتربت منه، تملكتني رجفة شديدة وأنا أمد يدي ليصافحني، كان شبه محموما، حاولت أن أنتزع منه بعض الجمل، لم يصلني منه سوى بضع كلمات مختلطة مع بعضها اختلاطا غريباً، كلمات بذلت جهداً ذهنياً كي أنفذ إلى ما وراءها.

كان لا زال يجلس على الأرض خائباً يائساً محزوناً كانت هيئته وملامحه الغامضة تحيطني، أحسست أنه بدأ يفتح لي قلبه، بدأت كلماته تمس أوتاراً دفينة في نفسي، فكادت تبكيني على الرغم من عدم فهمي التام لها، كان يتحدث وكأنه يخفي كلماته وراء نقاب أسود بهيم، شعرت أنه بقدر ما يود التحدث إلي إلا أنه وفي نفس الوقت لا يريد أن أفهم كل ما يقوله، وأن في فؤاده خوفاً وهلعاً مما يقول، هكذا تصورت.

كنت ألبث أمامه ساكنة، وبدأت أرثي له، أخذت أواصل استماعي إلى كلماته المبتورة التي تبلغ حد الرموز، إلا أنها كانت ترسم في

داخلـي صـوراً حيـة عنيفـة دافقـة الحيوية، كنت مأخـوذة بالتفاتاته وكل حركـة صغيـرة مـن حـركات أنامله وشـفتيه، وبعد سـاعات وجدتني قد شغفت شغفاً صريحاً ليس له نهاية بحديث ذلك الرجل المجهول، رغم أنني قد فشـلت فشـلاً تاماً في أن أعرف اسـمه أو مكان وزمان مولده، وبقيت أجهل عنه كل شيء، ولكم حاولت جهدي أن أقف على حدود ما تعنيه تلك الكلمات التي تصدر عن هذا الرجل الذي لم أعرف عنه شيئاً، لم أعرف سوى أنه كان إنساناً ينطق بحروف من نار.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ... سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

لا مفر من هذه الأشياء

يروى هنا أن هذا التمثال قديم جداً، يرجع تاريخ وجوده إلى عهود انقضت وولت، إلا أن التمثال باق، تمثال كبير لرجل ضخم، ويروى أيضاً أن الرجل نفسه موجود منذ عقود طويلة ولازال، وأنه من يستولي على الضوء ويتحكم في شئون الخلق هنا، قيل أنه ينحدر أصلاً من هذه الأرض، وقيل أنه قد أتى من مكان لا يمت بصلة لها.

نسمع أنه يعيش هنا، لم يره أحد، إلا أننا نشعر بثقل وجوده بيننا، يقال أنه هو من يسير شئون الموجودين هنا، وأنه يعتبر نفسه صاحب الفضل في إنشاء هذا المكان، وأنه هو المتحكم الوحيد فيه، نسمع عنه حكايات عديدة والآراء فيه متباينة، منها أنه يخاف الموت بدرجة تتعدى الخوف العادي الذي يتملك كل البشر تجاه الموت، وأنه يخشى الفناء، وعلى الرغم من أنه ينحدر من عائلة معمرة، يتعدى متوسط عمر الفرد فيها المائة والثلاثون عاماً، إلا أنها لا تعد شيئاً في نظره، ولا يعتبر عائلته معمرة أصلاً.

يرغب في الخلود بشدة، يتمنى لو يناله، تؤرقه استحالة الأمر، لا يمكنه تصور فكرة غيابه عن العالم الحسي، لا يسعه تخيل فقده

للسـيطرة على الخلق، يؤمن بأنه إن فقد سـلطته وسـيطرته فقد حياته، لذا فهو يتشبث بالسلطة ويبلغ بسيطرته أقصى حد، باتت السلطة مرادفاً لحياته، ذاع عنه استعانته بالطب والسحر وكل ما يمكن أن يضيف إلى عمره عدداً من السنوات، غير أن علمه بحتمية الفناء يعذبه كثيراً.

يقـال أنـه يتمتـع بصحـة قوية وأنـه لا يمرض أبداً، اختلفت الناس في تحديد عمره، منهم من يعتقد أنه قد تعدى المائة والثلاثين، ومنهم مـن يقـول أنـه قـد اقتـرب منهـا ولـم يتمها بعد، منهم مـن يقول بوفاته، ومنهم من لا يؤمن بوجود مثل هذا الرجل أصلاً، يقال أنه يفتقد القدرة على التفكير وأنه يفتقر إلى الحكمة، ويقال أن عنده العلم بأحوالنا وما يجري لنا.

حـار فكرنـا حـول هـذا الرجل ولم نكتشـف حقيقته بعد، الحقيقة المرئيـة الوحيـدة هـي وجـود هـذا التمثـال، يمثـل أمامنا بكامـل هيمنته وسـلطانه، كلنـا يـراه، منـا مـن يـراه مهيب الطلعة، ومنـا من يراه حقيراً، منا من يقدسه ومنا من يلعنه، كما أن هناك يقيناً قد ترسخ لدى الأغلبية هنا وهو أن وجود هذا التمثال يجلب النحس، وها نحن ننظر إليه في كل يوم، ما بين مصدق ومكذب، وما بين معظم ومحقر.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴾

لا محصلة منطقية لكل ما يحدث

أمام داري رأيت جثة فتاة ميتة، ربما كانت جارة لي، يا للفتاة المسكينة، كيف ماتت؟ لا دماء، لا آثار لطعنات أو طلقات نارية كالمعتاد هنا، هل اقتربت هذه الفتاة من الخروج؟ هل توصلت إلى شيء بهذا القرب من داري؟..

لم أحتمل فكرة أن تبقى الجثة أمام الباب حتى تتعفن، فكرت في أن أستعين بمن يساعدني في دفنها في المقابر ذات الشواهد السوداء، وحين هممت بالذهاب، رأيت أن الفتاة تمسك بمجموعة من المفاتيح، مددت يدي مرتعبة لآخذها، وضعتها في جيبي ومضيت، وأنا أفكر ماذا أفعل بها؟ ومن أين يجب أن أبدأ البحث عن طريق للاستفادة من هذه المفاتيح؟

ربما أن تلك الفتاة كانت تمسك بتلك المفاتيح بهذه الصورة العلنية لأنها كانت تنوي ألا تعاود استخدامها أو ربما كانت للمرة الأولى أو كانت لا تزال تحاول بهذه المفاتيح، تلك الفتاة المجهولة بالنسبة لي، ربما أنها لم تستطع العثور على أية أبواب، لابد أنها سقطت في

عمق يأس غمرها، أو ربما قضي عليها بطريقة خفية، أو ربما تخلصت هـي مـن حياتهـا، أو هـو حـادث قتـل لا تفسـير لـه، علي أن أبحث عن بيـت تلـك الفتـاة المجهولـة، وأن أفتـش فـي بيتها عن أوراق تشـير إلى شيء عنها أو عن الجوفار.

عندمـا طرقـت بيتـه، لـم أكـن أعـرف ماذا ينتظرنـي، طرقت الباب مرتين، انتظرت في حيرة وقلق في تلك اللحظات التي كان وقعها ثقيلاً بطيئاً على نفسي، ظهر لي ذلك الرجل الجاف القاسي الملامح وصاحب نبرة الصوت الخشنة، سألني عما أريد، أخبرته أنني أرغب في دفن جثة وأحتاج للمساعدة، سألني هل كان حادث انتحار أم قتل، أخبرته أنني لا أعلم وأنه لا توجد أية إشارات دالة، هي جثة لفتاة شابة وجدتها ملقاة أمام باب داري، ولازالت هناك، أغلق الباب وسار أمامي، وكنت أتبعه في الظلام الذي بدأ يحل، فكرت كيف سيتم الأمر، وهل سأذهب إلى تلك المقابر ذات الشواهد السوداء، كنت أشعر بالإنهاك الشديد، كنت قد أمضيت النهار كله وأنا أنتقل من مكان إلى آخر، وحين عدت إلى داري ووجـدت هـذه الفتـاة المسـكينة عانيـت انفعالات قوية جراء هذه الصدمة، والآن مجرد التفكير في ذهابي إلى المقابر يكاد يجهز علي.

وصلنا إلى الساحة واقتربنا من الدار، ذهب الرجل يفحص الجثة، بينما وقفت أنا وتسمرت في مكاني بعيدة عنه، استشعر الرجل الرعب الذي حل بي، ولاحظت أن الرجل يفتش عما إذا كان هناك أي شيء كان مع الجثة، أي دليل أو أوراق، وعندما أنهى بحثه نظر نحوي بطريقة زادت من رعبي، وحين سألني إن كنت قد فتشت هذه الجثة، على الفور أظهرت له المفاتيح، وبسبب الخوف الشديد الذي ظهر له، صدقني حين أقسـمت أني لم أجد سـوى هذه المفاتيح، سـألني إذا ما كنت أعرف شـيئاً عـن هـذه الفتـاة، طلب منـي المفاتيح فأعطيتها له، أخرج مصباحا يدويـا مـن جيبـه وأعطـاه لـي، حمـل الفتـاة بين ذراعيـه وطلب مني أن أسـير بجواره لأنير له الطريق بقدر المسـتطاع، أخبرته وأنا أتمتم بأنني لا أستطيع الذهاب إلى المقابر.

سرنا وكان الإنهاك لم يعد يسمح لي بأن أخطو خطوة أخرى، إلا أنني أرغمت على السير، انتبهت عندما قال لقد وصلنا، إذن ها هي المقابر، هكذا كنت أظن إلا أنني وجدت أنني لست أمام المقابر ذات الشواهد السوداء، ولا أي مقابر أخرى، وإنما وجدت نفسي أمام بحر رهيب، ولم يكن هناك حينئذ ما يستحق التوضيح، هذا الرجل يعرف عن المكان أكثر مني ويدري بأماكن أجهلها تماماً، ولم أكن أعلم إلى ماذا ستصير الأمور، هذا البحر الذي يبدو وكأنه سد وليس أفق، فكرت في الركض والهرب، وسرعان ما تلاشت الفكرة، كنت أشعر بأصابع خفية تضغط على قلبي، كان البحر مظلماً، نرى بياض أمواجه بصعوبة، نسمع صوته الهادر المخيف، ألقاها في البحر، ثم أعاد إلى المفاتيح وورقة مطوية ونصحني أو ربما أمرني بعدم المجيء إلى هذا المكان مرة أخرى، ثم اتجه نحو البحر واختفى في الظلام.

اجتزت ذلك المكان بصعوبة استيقظت في الصباح لأجد نفسي نائمة وسط المقابر السوداء، عدت بأعجوبة إلى داري، أعاني اضطرابا سيطر على رأسي لعدة أيام، أمسك بالورقة التي كتب فيها «لن يتمكن أحدكم من الهرب»، نظرة الرجل الأخيرة والتماعة عينيه التي رأيتها بصعوبة في الظلام، لم تفارق عيني.

لم أعرف كيف حدث كل ذلك، من الصعب معرفة حقيقة الأمر، وأعتقد أنني لن أعرف قط، لم أعد أريد اكتشاف أي شيء، واقع أنني أمضيت ليلة لا أدري عنها شيئاً وسط المقابر كاد يودي بي، وبعد أن أفقت قليلاً أخذت أدون ما حدث، وبعد أن انتهيت من تسجيل كل ما وعيت بحدوثه، أخذت أتساءل عن السبب الذي حدا بهذا الرجل إلى الذهاب معي ومساعدتي، وعن البواعث العميقة التي جعلته يغامر بحياته ويلقي بنفسه في هذا البحر العجيب في سبيل ما هو ليس بأكيد، كانت عودتي إلى هذا المكان أمراً لا يمكن التفكير فيه بالنسبة إلي، لا يمكن أن أخطو خطوة واحدة تجاه هذا المكان مرة أخرى.

نحيـا فـي ليل التاريخ، نحن بقايا جثث التاريخ، على هذا الترا ب، يمـو ت النهـار، يبكي التاريـخ المنهزم، نرقد فـي هزيمة الظلمة، حيث ضاع الخيط في عتمة الجحيم.

أنى لنا الكشف؟!...

افتـح لنـا تلـك البوابـات، قـل لنا أذهبوا فانتم أحـرار، لن نذهب، سنبقى مرعوبين لا نعرف أين نذهب، سوف نتجمع بعضنا إلى بعض، سـوف نتراص كقطيع، لا يريد أحدنا أن يضل، حيث لا راعي ليجده، لن يقدم أحدنا على مغامرة بلا يد ترشده، وبلا رفيق يصاحبه، نرغب أن نعيش بأمان حتى وإن بقينا هنا، لن نذهب طواعية نحو انهزام متوقع، ولا استعداد لدينا لهجوم منظم.

حياتنـا كلهـا صـدف، وقضـاء، وقدر، لا نعلم شـيئاً، لا ندري عن شـيء، لا يقيـن ثابـت، لا نمسـك سـر الحيـاة بيـن أناملنـا، نملك فراغ العقـل، نملـك السـخف، نملـك الأفـكار الجوفاء التي تحيط بنا، نملك حياة معزولة، نملك الجوفار الذي رمينا فيه، لا نفكر بعمق، لا نعرف طريق الصواب، لا نعرف سبيل السعادة، نلتصق بآراء قديمة، ونظريات نخرة، نتردد، لا نحاول، لا نجرب، لا نريد، لا نعرف، ولعلنا لن نعرف أبداً.

تتخبـط بنـا الحيـاة، يقـع علـى كاهلنـا عـبء كل شـيء، نتحمـل

كل النتائـج، نعبـث، يعاملنـا الوقـت بكل الاسـتخفاف والازدراء، نجيبه بالإهمـال وعـدم المبـالاة، نواجـه سـيلاً لا ينقطـع ولا يخمد ولا تخف حدته لحظة من الأفكار المريعة السوداء، نسير على غير هدى، نذهب إلى غير محل، نبحث عن مجال أضيق من ثقب الإبرة، نواجه أشـياء سخيفة أقوى منا، نخاف، نخاف، نخاف، كياننا زيف وفراغ، نهبط عميقاً في الظلمة، نعبر في تيه وسكرات، نرتعب ونتجاسر، نغترب ونتحول، إلى أن يحين الميقات فنتمزق ونتناثر في النهايات.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

هكذا نصل...

هي لم تكن إلا لحظات، وبعد ذلك تغيرت الأمور، كان يتحدث عن شيء ما، ينطلق في الحديث بسرعة كبيرة لا داعي لها، كانت ملامح وجهه ترتعش، يومئ ويهز رأسه، فيهتز شعره، لم يكن غاضباً ولا ثائر الأعصاب، كان حانقاً، كنت بجانبه أتمنى أن ننتهي ونتداخل سوياً مع الأبدية، أن نلتصق ببعضنا إلى ما لا نهاية، حين طالبني بمشاركته الحديث، كنت أتملى الأفق المتسع الذي أتمنى الذهاب إليه، تركته ينتظر جوابي، فلم تمل نفسي إلى الرد عليه، لم أكن منغمسة في التفكير، بل كنت بالأحرى غارقة في غيبوبة ذهنية لا حدود لها، غيبوبة منحتني ما يشبه السعادة، وشعرت باسترخاء كامل، ولما زاد إلحاحه علي، التفت إليه واقتربت منه بسكون، فاض مني بركان من الأحاسيس، وانطلقت أغالب نفسي.

- هل حصل شيء جديد؟
- كلا. لكن لابد لي أن أفهم شيئاً عن هذا الوضع وإلى متى سيطول؟

عاد الصمت يطرق الغرفة مرة أخرى، ولأن غلبة الصمت صارت من الأمور العادية، فقد تعودنا أن نتعرف على ما يجري بداخل كل منا من خلال هذا الصمت، نستمع إلى تلك الموسيقى الخفية التي يعزفها صمتنا، تلك الطرقات الواخزة لأنات لا يصدر لها صوت، باتت مسألة مفروغ منها، إلا أنني عدت أحدثه:

– ألا يكفي أننا لم نعد نشعر بتلك الوحشة المطلقة؟

– يحزنني أنني قد أنهيت هذا العدد من السنين هنا من دونك.

لا أدري لم أقلقني وأحزنني أن أسمع منه هذا الكلام، رأيته وكأني أراه للمرة الأولى، حين إلتقيته في تلك الليلة، لم يكن هنالك ذلك المساء، أي سبب وجيه يجعلني أنجذب إلى أي شيء سوى الخروج المنتظر، كان طويلاً، نحيلاً ذو بنية قوية، شعر طويل، وعينان لست قادرة على تحديد لونهما، حائرة بين الأزرق والأخضر والعسلي الصافي، يرتدي سروالاً جينز أسود اللون، وقميص أسود أيضاً، وكأنه يريد أن يبدي عدم اهتمام الجميع به، أو كأنه يريد أن يخفي جرحاً روحياً غائراً، مثلي ومثل الجميع هنا، أذكره حين اقترب مني، جريحاً، مشعاً، أذكر كيف اندفع نحوي بحرارة لم تقطعها أصوات المحيطين وطرقاتهم المختلطة على باب لا يرونه.

كان ببساطة وضع غير معقول، غير معقول البتة. كيف ابتعدنا نتكلم بهمس وسط كل هذا الضجيج، كيف أصبحنا صديقين متفاهمين، كيف أمسكت بذراعه اليمنى كأني طفلة أتشبث به، كيف اكتشفنا أننا كنا نملك كل هذا القدر من الحساسية والذوق والإدراك، كيف أصبحنا بشكل غير قابل للتفسير يرعى كل منا الآخر وكأنه مسئول عنه، يساعد كل منا الآخر على تقبل العيش هنا إلى أن يحين موعد خروجنا، كيف أني ومع إمساكي المستديم بذراعه الذي يمنحني الكثير من القوة، كنت أخشى عليه من سوءة الحياة هنا وغلاظتها، تذكرت ذلك الدفء الغريب

الذي شعرنا به يسري في عظامنا كما لو سخنت دمائنا حين تشابكت أيدينا للمرة الأولى، وقتها قال لي أنه شعر أن تلك القبضة الناعمة تشده إلى الحياة.

لم نستطع وقتذاك حين تقابلنا، وحين كنا في خضم مسار طويل من الأسى والانتظار، أن نتظاهر بأننا لم نفهم دلالات نظراتنا المتبادلة، حين جلست قريبة منه، أصغي إلى كلامه، مضطربة، محمرة الخدين، وهو يحدث عيني ويشرح كل شيء دون اكتراث بمن حولنا، في تلك اللحظات نفسها، كنا نحن الاثنين قد قررنا أننا لن نترك أحدنا يفلت من الآخر، كانت أنفاسه في وجهي مثل نسمات ربيعية دافئة، حين أفتقدها تنحصر روحي، وإن فقدتها ماذا يتبقى لي، وهي فقط الخيط الأخير الذي يصلني بالحياة.

كنت مسحورة به، ولا أطيق أن أخفي هذا السحر، بدا علي التردد في وقفتي كأني لم أصدق ما قاله، همس وهو يشدني إلى صدره، لا تمنعيني، أرجوك، كم شاقني اضطرابي وضعفي ولهفتي وما خفي من كلماتي، تلك كانت البداية، بعدها صارت حياتنا بمجملها مشحونة بتلك العاطفة اللامتوقعة هنا، ومع كل الظلمات الجاثمة علينا والتي لا نهاية لها على ما يبدو، إلا أن حياتنا أصبح بإمكانها أن تتحول في لحظات إلى نهار مشرق مشمس بهيج، نتبادل المزاح، يسري حماس الحياة في الجسد والروح، نتوهج، نقترب ونقترب فتغلفني رائحته وتغلفه رائحتي، يغمرنا عالم سحري لا نعرف له اسماً.

صرت ملتحمة به تماماً، يتوجه إليه كل حبي، وكل ضعفي، وكل استكانتي، كل ملامحي، كل نظراتي، كل رائحتي، كل صمتي. وهكذا كنا ضمن عجزنا المطلق، نتألم كثيراً، ونتصابر كثيراً، أصبحنا معاً في تلك المحنة التي تضاعفت على كلينا حيث صار كل منا يحمل هماً مضاعفاً بعد أن كان يحمل همه مفرداً، تلك المحنة التي تزداد في تعذيبها لنا من خلال سعادة كبرى لا تطاق، حيث لا مكان لها هنا.

لن نغفر أبداً...

تبدى لي ظله في مدخل الدار، مقبل نحوي، هتف يكلمني:

- أشعلي الضوء.

توقفت لحظة، بعدها أضأت مصباح كهربائي ضعيف، انتبهت إليه يخرج بعض البيض من الثلاجة، ثم أردف بسرعة:

- تعالي نحضر عشاء الله يرضى عليكي، الجوع أكل قلبي.
- دلوقتي هاعملك بيض مقلي، بس دا مش العشاء، بعد ساعتين أو ثلاث هاكون عملتلك أحلى عشا.

جلس على الكرسي الفارغ، يأكل البيض والجبن الأبيض، لاحظت بعض الإعياء في جلسته، وفي ملامحه ولون وجهه، سألته:

- مالك حبيبي؟...

سمعته يطلق تنهيدة طويلة، عبر بها عن كل ما يجرى معه. سكت وأنا أشعر بأني لا أستطيع على الرغم من علاقتي به والآخذة في القوة، أن أبدي أي عرض بأي نوع من المساعدة، حتى السماع إليه فأنا كنت متعبة جداً في ذلك اليوم من طول ما استمعت إلى نفسي، وها أنا أحضر له اللحم (كباب حلة) المفضل لديه الذي يطلب أن أعده دائماً.

تكلم هو قائلاً:

- لم أكن أظن أنني سأبقى هنا كل هذه المدة الطويلة.

ابتسمت قائلة:

- ربما كنت تنتظرني.
- هل كنت تود الرحيل دون أن تعرفني؟
- لا
- لكن...
- تمنيت لو عرفتك قبل أن يحدث كل هذا.

كانت عيون الموقد تبعث ببعض الحرارة، وقدور الطعام تهمهم وتتهامس، شعرت به يقف في زاوية المطبخ قرب الصحون المصفوفة، أدرت نظري إليه، كان يمسح ببطء وذهول على الأطباق، لم أرد أن أكلمه، لكنني لم أستطع:

- مالك حبيبي؟...

رفع يده ومسح بخفة أسفل عينيه، لم أعلم هل كان يبكي حقاً، أردت أن أكرر سؤالي، همست:

- مالك حبيبي؟...

هنا تأكدت، احتضنته برفق وقبلت خده المبلل، أحسست به طفلا في الخامسة من العمر، لم ير من الحياة شيئاً ولم يذق علقمها بعد، عدت إلى همسي:

- ألم نتفق أننا لن نحزن إلا إذا افترقنا؟
- أعرف... لكن ما هذه الحياة؟ ما انقضاء العمر يوما بعد يوما هنا بهذا الشكل؟

استدرت نحو الموقد وحرارته، وسمعني هو أقول له بصوت ثابت:

- ما رأيك أن نبقى هنا؟

لم يرد، حتى أنا انتابني الخوف مما تلفظت به، ولكنني أوقفت

نفسي عن التفكير في هذا الذي صدر مني، وهربت من تلك الفكرة التي تقـرر بأنـه ربمـا أصبحـت لـدي الرغبة في البقاء هنا، باختصار تجاهلت تمامـاً مـا قلتـه وكأن شـيئاً لـم يكـن، وغرقت فـي صمتي، كنت أريد أن أنتهـي مـن العشـاء كـي أتحـدث بهـدوء معه، وأفهم منـه بعض أفكاره، وضعت بعض الأواني على المائدة الصغيرة في المطبخ.

كان قلبي قد ضاق من كلامه، أشعر بوخز وأنا أرقبه يتحرك كأنه أصبـح لا عقـل لـه مـن العـذاب. بعد تناول الطعام، قبل يدي مثنياً على جودة إعداده وطعمه الذكي، ثم خرج إلى الشرفة يدخن سيجارته، كانت السماء سوداء مرصعة ببعض النجوم التي تلطخها الغيوم، كانت الساحة مظلمـة كفـم بئـر، ذهبـت إليـه بعـد أن انتهيت من المطبـخ، كنت متعبة أحس بثقل في قدمي، تمنيت لو أستطيع النوم.

– هل تحب أن تشاهد فيلماً؟

لم يجبني، أطل برأسه نحو ضوء أبيض ضعيف أخبرني أنه يراه، التفت نحو ما يشير إليه، لكنني لم أستطع الرؤية، لم أميز ذلك الضوء الذي يتحدث عنه، كلمته:

– الجو بارد... تعال إلى الداخل.

– لا. لا. سأخرج لأتحقق بنفسي.

خشيت أن أثنيه عن الخروج، وخشيت أيضاً أن أصاحبه، وكذلك خشيت عندما تأخر في العودة إلي وإلى داره، أشعر شعوراً مخيفاً بخطر يحدق به، فليحفظه الله من مصيره.

خرج في تلك الليلة، ليرى إلى أين يؤدي ذلك الضوء ومن أين مصدره، سيبقى إلى أن ينطفئ هذا الضوء، وقف حزيناً، تغرق الساحة فـي الظـلام، يبـدو وكأنـه كان فـي حاجـة إلى كل هـذا الظلام، كنت لا أزال خائفة، كنت لا أزال أسمع خطواته السريعة وهي تتجه نحو الباب، لبثت بضع دقائق متجمدة في سريري، ثم ذهبت أفتش عنه وأنا أشعر

أنني سوف أكون أسوأ حالاً مما كنت عليه، وأن الجوفار يتقلب بي مثلما يتقلب موج البحر الهائج، ولا أدري كيف استطعت أن أحافظ على هدوء أعصابي، خرجت إلى الشرفة، شعرت بالخوف من أن أذهب وراءه، شعرت بالخوف من الذهاب إلى أي مكان، لم يكن سهلاً علي، لكنني دخلت وأغلقت باب الشرفة جيداً، خلوت بنفسي، أشعر بوحشة لا تطاق، أريد التفكير بكل شيء، ولا أريد التفكير بشيء، انطلق هو يشق الظلام، يبحث عن نوع من أنواع التحرر المكاني، كنت منزعجة، منزعجة جداً، كنت بحاجة إليه كي ينتشلني من خضم دوراني هذا. عدت لألقي بنفسي على الفراش.

انتبهت على صرخة تأتي من النافذة المطلة على الساحة، تملكني الفزع، ولم أستطع النهوض من فراشي، إلا أنني غالبت نفسي المذعورة، وقمت لأفتح النافذة بحذر، رأيت وجهه، أصفر في شحوب، هكذا رأيته في ظلام لا يكسر حدته سوى بعض الضوء المنعكس من خلال نافذة غرفتي، حين استقبلته على باب الدار، دخل إلي يسيل العرق من جبهته وترتجف عيناه، امتدت يدي لتمسح جبينه وأنا أمتلئ بالخوف والحزن وأنا أنظر إلى تلك القسمات المعذبة اليائسة، في لحظة وبحركة سريعة احتضنني، وبدا وكأنه يوشك على النحيب، ركضنا نختبئ في الفراش، يجهد كل منا لتحمل آلامه، نندفن في ظلمات عميقة لا قرار لها، يحتضن كل منا الآخر في تلك الظلمات، فيخيل إلينا أننا قد صرنا في مأمن منها. أخبرني أنه كان يركض بهلع، وسط ظلمة بدت له مضاعفة، كان ضائعاً، لكنه لم يتوقف، كان يريد تحريك أفكاره كي تصل به إلى منطقة آمنة، كان الجوفار مظلماً، يمتد إلى ما لا نهاية في ظلمته، فعاد إلي.

تعرية الكلمات

يجب أن ندع الرمز والتلميح والمجاز، يجب أن نسمي الأمور بمسمياتها، من يسرق خبزنا فهو سارق وليس المسئول الأول عن الغذاء، من يخون كل أمانة فهو خائن وليس أمين سر مصلحة الأمانة، من يقتل نفساً فهو قاتل وليس المكلف بحماية حياة الأفراد، من يغتصب كل حق وينتهك كل حرمة فهو عاهر وليس الرجل الذي نعيش جميعنا في حماه...

سنظل نذكر بالظلم الذي حاق بنا...

يأتي صديقي مستكيناً، أفتح له الباب، وأتركه خلفي سائراً، أخجل من حزنه، كان الخجل يفترسني وأنا أحرص على ألا تؤذيه كلماتي عن الحياة وسكينها التي تغرزها فينا، وعن عبورنا المحتوم، كنت أشفق عليه كطفل في الخامسة يستمع إلى مثل تلك الكلمات، كانت أبوابه دائماً مفتوحة لي، كم وددت أن يكون دخولي إليه مرحاً، أحمل إلى أحشائه حبوراً لا أعرفه.

هذا الطفل الذي يجابه المطلق، يريد أن يمسكه مسك اليد، هذا الطفل الذي لا ينتظره سوى الهزيمة، هزيمة سيخرج بها من معركة لم تعرف حدوداً ولا شدة ولا ضعفا ولا تقدما ولا تراجعا، معركة تدور في مكان بلا شمال أو جنوب، فوق أو تحت، مكان من دون اتجاهات أو بدايات مرجعية.

كان عليه أن يخرج من متاهة أفكاره ليعود إلي، سـألني إن تبقى بعـض الشـاي السـاخن فـي الترمـس، كانت السـاعة الواحـدة والنصف صباحاً، جلسنا صامتين إلى تلك الساعة التي تسبق انبثاق الفجر، يجلس كل منا منكمشاً على نفسه، بداخل كل منا سكون وهدوء غريب، نرقد دون حراك، أنظر نحوه، بت أخشـى سـكوته، إنه صار يمثل لي الحياة بكل صورها.

هـذا الشـاب الجميـل الـذي يتفجـر رغبـة في الحياة، يأسـر الفرح الوحيد في صمته، هذا الذي يطوي ألمه بين جوانحه، بدأ النور يزداد، نراه من باب الشـرفة المفتوح، سـاورني قلق آلمني، أسـأله هل يشـعر بالرغبـة فـي النـوم، يجيبنـي بالنفـي، ويخبرنـي أن بإمكاني الذهاب إلى الفراش إن كنت قد تعبت من السهر معه، ينتشر الفجر، ويبقى السكون، كعرض صامت يعرض حياتنا في هدوء، نرى أنفسـنا في هذا العرض تمسـك بنـا أيـاد خفيـة، تبعـث ظلمـة عميقـة في أعماقنا، تسـيطر علينا، تسمرنا في أماكننا، تشل أذهاننا، فنبقى كجماد لا حراك فيه، لا ندري إلى أين تقودنا هذه الحياة القاسية، أخاف هذا السكون وهذا الصمت، أدرك تماماً ماذا ستكون نتيجته، لذا يتغلب علي الإحساس بالخوف.

لا أزال أنظـر إليـه، أرى حزنـه السـام فـي كل لحظـة مـن لحظات شـروده عنـي، أراه ينهـزم كالمجنـون المتألـم، تتحـرق جروحـه وتدمى جوانحه، لبث يحكمه الألم، طريقه مؤلم وشـنيع، وهو لم يعد يمكنه العيش هكذا.

بقي كل منا سهرانا لا يهدأ له مرقد، كانت الأفكار تشغلنا ولم ينجنا منها شـيء، ضاق صدرنا وصغرت الدنيا في أعيننا، جاء النهار مشـبعاً بضبـاب رمـادي يقبـض النفس، فشـعرنا بأننا محاصرون داخل صندوق مختوم من الزجاج، وفي نفس الوقت نشـعر بخلو فظيع يحيط بنا، لم تتوقـف الأفـكار أبـداً، لـم تحـل الغوامض ولم تفهم الأسـرار، ولا زال الجوفار يخيفنا، ويحد من أعمالنا.

ما هي الحرية؟...

ربمـا نستعيـد حريتنـا ذات يوم، لـذا يجب أن نحتفـظ بها داخل أرواحنـا، كـي يمكنها العودة متى شـاءت، وكي يكون بوسعنا أن نستقبلها، وتتوفر لدينا القدرة على ممارستها، وكي لا تكون بمثابة جسم غريب لا يمكنه التأقلم مع سائر البنيان.

أي نهار ينتظرنا؟...

نتـرك جانبـاً كل يـأس، نغتنـم الفرصة كي نشـكل طبقة جديدة من الأمل، ويمكن القول بهذا الخصوص إن هذه هي الفرصة الوحيدة التي يتسنى فيها أن ننعم ببعض الراحة، نغدو مطلقين العنان لأنفسنا، يحدونا الأمـل صـوب البعيـد المطلـق، كنت أسـير معـه بجنون على الطريق في الثالثـة صباحـاً، هـواء دافـئ يهاجمني، يتطاير شـعري حول وجهي، كنا سكارى برائحة الحياة.

كنـت أخبـره كـم أعشـق هـذا الهـواء الدافـئ، كم أحب ملامسـته لوجهي، لما يظهر من جسدي، أحب أن أملأ به صدري، أعشق الدفء، وأكـره الهـواء البـارد، أكـره البـرد وكل مـا هو بارد، وهو ما لا أشـعر به أبـداً بقربـك، كنـت أتحـدث وأنـا أحتضن ذراعه سـائرة بجواره، توقف ليواجهنـي ثـم طوقنـي بذراعيـه القويتيـن، وأمطرني بقبلاته الحرى حتى كدت أحترق، أفتح عيني فأجده ينظر نحوي باسماً، يخبرني أنني أتورد خجـلاً، وأننـي أبـدو أجمـل ممـا أنا بعد أن يقبلنـي، أقبل هاتين العينين

الفائضتيـن بالحنـان، وأخبـره أنـا أنه يبـدو رائق النفس، وأنني أحس أنه يقدم إلي كيانه كله لأتملكه.

حين يضمني حبيبي إليه، لا أعد أرى شيئاً سواه، تبدو على وجهي علامـات الانتصـار علـى العالـم، تسـكن كل المخاوف في قلبي، تطغى دغدغـة المحبـة والجنـون فـوق الألـم، يهيـم العقل، يضمنـي ويضمني ويضمني إلى صدره، يمنحني دفعة رقيقة، أمنحه كل شيء، أغمره برقة ولطف، نشعر بوجود ليس يفنى على الأبد، يلمس شعري بحنو فيزيده نعومة سـحرية، تبتسـم عيناه لعيني فتبتل جوانحي بمثل قطرات الندى، يحبني وكأنني الحياة كلها، يلفني ذلك الرباط الخفي الذي وصل بيننا، بقربه أشعر بدفء غريب ينبع في قلبي، أنظر إليه ذائبة في علاقتي بعينيه، يقبلنـي مـرة أخـرى ويمتـص حرارتي، ننصهـر بقوة لا فكاك منها، يرفع بإصبعه خصلة من شعري، يمنحني شعوراً بالرضا اللامحدود، وتوشك الجراح الغائرة أن تلتئم، يملؤنا الوهم، ننحني أمام الأمل، نصير قوس قزح، تأتينا الطفولة من حيث لا ندري، نستفيق من دوار اليأس، تتفرع شجيرات، وتنبثق أنهار، يشق الضوء طريقه إلينا، تختنق الظلمة.

سرنا طويلاً، وكانت الفكرة تدور في رأسي، من حقنا جميعاً أن يغمرنا الفرح، من حقنا جميعاً أن يغمرنا الحب، أن نكون سعداء لفترة ما على الأقل، أن يأتي وقت نشعر فيه بالانتصار.

كلاب

هؤلاء الذين أصابهم السعار، من يجرون وراءنا كي يلتهمون لحمنا... الكلاب.

لم ينته زمن الآلام ليبدأ زمن النسيان...

أذهب إليه، أجلس ليروي لي عن أبيه، كان عمره عاما واحدا حين اضطروا إلى ترك الوطن والبحث عن وطن بديل لم يعرف غيره إلى أن جاء إلى الجوفار، يجلس بجواري كطفل مطمئن، يذكر ذلك الأب الذي أنجبه وهو في الستين من عمره، فكان أصغر أبنائه وأحبهم إلى قلبه، أغدق عليه الحب والعطف والحنان وكم سقاه من نبع رجولته وحكمته وإيمانه.

يذكر أبيه كثيراً، يخبرني أنه حين كان حياً، تعود هو وأمه وأشقائه، على مستوى متوسط من العيش، يضمن لهم طعاماً جيداً ولباساً لائقاً، يظل يتحدث وأظل أستمع:

- كنا ثلاثة عشر طفلاً وطفلة، رزق بي أبي بعد أن جاوز الستين، لم يكن ذلك ما يريده، لكن بعد عشر سنوات من آخر طفل رزق به، جئت أنا لأزيد من ثقل الحمل على كتفي أبي، إلا أنه وعلى الرغم من الحمل الثقيل هذا، لم يدعنا نشعر بوطأة العوز علينا، لم يؤذني أبي إلا بوفاته، توفي دون مرض، دون مقاومة، دون سبب، كنت في السادسة والعشرين من عمري، إلا أنني لم أكن صلب الروح، هبطت بي الدنيا. كنت أراه

كاملاً، كبيراً في كل المعاني، كان طويلاً قوياً، وجه جميل يملأه النور، كان يعبدنا أنا وإخوتي، أكثر ما أشتاق إليه الآن هو أن يربت بيده على صدري كما كان يفعل دائماً، أحتاج تلك اليد الطاهرة الآن لتشفي هذا الصدر الذي لا تشفى غلته، كان يحكي لنا حكايات كثيرة عن الوطن وعن الأعداء، الذين كان يصغرهم ويسخر منهم، كان يؤمن بأنهم على المدى الطويل سينتهون نهاية وخيمة، وإن بدا ذلك مستحيلاً في حينه.

اغرورقـت عينـاه بالدمـوع، وهـو يـروي، احتضنتـه بحنان، وقلت لـه ليرحمـه اللـه، صـرت أفهـم عنـه وإن لـم يفـه حرفـاً، حتى سـكناته وشروداته.

كنا لا نزال في الفراش، قال لي يجب أن نخرج للبحث ثانية، أخبرني أنه يجب أن يذهب الآن، عله يكتشف مكاناً لم يكتشفه من قبل...

– سوف آتي معك.

– أفضل أن أذهب بمفردي، سيكون أسهل علي وسوف أكون مطمئناً وأنت في دارك.

– إلى متى سأحتمل خوف خطر ضياعك، لم أعد قادرة، ملازمتك أسهل بكثير، رغم أنني بدأت أشعر بالإنهاك الشديد، هنا وحدي سوف يميتني الخوف والقلق عليك، أهون بكثير أن أخاف وأقلق وأنا بصحبتك.

ظللت أرجوه أن نذهب سوياً وليكن ما يكون، وافق وفي صوته نبـرة توحـي بأنـه مضطرب أشـد الاضطراب، ذهبنـا وكانت كمية الأمل المتبقية لدينا سـيئة جداً، تزداد حالة الجوفار سـوءاً سـاعة بعد أخرى، تتزايد العتمة، لم نعد نرى النور إلا في أوقات قليلة في النهار، والسير هنا أصبح شاقا جداً، نقوم نحن في صدر المعارضة، ونرقى في البحث إلـى المعاكسـة والمناقضـة، علـى الرغـم مـن العزلـة الطويلـة التي نفتنا وأقصتنا إلا أن القلب لم يخمد والضمير لم يمت موتاً بارداً.

مضـت مـدة ونحـن نقطـع شـوارع مظلمة نتذكرهـا جيداً من طول

بحثنا، نصل إلى مكان موحش تضيئه أنوار شاحبة، كان مكاناً يخشاه الشجعان، نرى جدراناً سوداء، نتطلع، نرى تلك الجدران وكأنها ترمقنا متحفزة، نسمع صوت طرقات ضعيفة خافتة، زاد من هول تلك الطرقات دوي هائل يختلط بصرخات تشق الأذن، وكانت تمر أمام أبصارنا أضواء حمراء كالدم، شعرنا بفزع وتسلط علينا شعور قوي بالفشل والتخاذل، أردنا الابتعاد عن هذا الجو المخنق، يلفنا هواء سام، وكأننا في طبقات الأرض السفلى، نكاد نلمس تلك الأيادي التي تقبض على أنفاسنا، تسارعت دقات القلب، وركضت الدماء في العروق، وبلغ توتر الأعصاب حد التمزق.

توقف كل شيء، وأخذنا نسرع بالعودة إلى الدار كي ننجو من هذا الكابوس المريع، وفي الطريق لم يكن سوى السكون، سكن كل شيء ما عدا رعبنا وذعرنا، يعود إلينا ذلك السكون المميت، فيسيطر علينا سيطرة مطلقة، نرقب كل شيء في هدوء وصمت، كانت الحال غريبة، تملكنا إعياء مفاجئ، وبدأ التعب يسري في الأطراف، توقفنا عن السير، تجمعت الدموع في أطراف عيني، وجاهدت نفسي كي لا يشعر بها، مد يده وتلمس عيني فسقطت دموعي، وارتميت برأسي على صدره، ورفعت عيني إلى السماء، كنت أتحدث، وكان هو يحتضنني ويبتسم بمرارة. كانت عيناه متعبتين، تمتلئ نفسه بالمرارة والحقد.

سألته إن كان يشعر بتعب، وقعت كلماته موقعاً مؤلماً من نفسي وأحسست بحزن قوي وهو يخفي حزنه وتعبه ويجهد فوق طاقته كي يخفف عني، كان يضمني تارة، وتارة يشد ذراعه حول خصري كي أتوازن وأنا أستند إليه، بينما كنت أشعر بإرتجافة ذراعه، للحظات أحسست بدوار بسيط، جعل كل شيء يدور تحت قدمي، كنت أسير بجواره، أستند عليه وكأنه يحملني، كنت أرفع بصري نحو السماء الداكنة الخالية إلا من بضع نجمات متفرقات، وكان يثنيني عن ذلك فيوجه رأسي نحوه بلمسة رقيقة حانية، كان مرتجف اليدين، ملتهب الذهن.

نحمل هويتنا الترابية ونعود إلى سلامنا الرمادي، نعيش ما لا نقدر عليه في دائرة اللامبالاة...

نطلب النهار...

نختار الاستسلام في لحظات معينة من اليأس، ننقاد للضعف والوهن، نغمض أعيننا ونسند ظهرنا إلى الأريكة، ننسى التذمر، ننسى الأحلام المخادعة، نعرف نعاساً حقيقياً ثقيلاً، وتعباً لا يقل ثقلاً عنه، نستيقظ بدون أن نعرف أي حقيقة تنتظرنا في تلك اللحظة، نستيقظ ولا نستيقظ، نظل نردد أن هناك أشياء لا خيار للمرء فيها، بالفعل... هناك أشياء لا خيار للمرء فيها.

تغمرنا الظلمة، لا ننتظر النور، أشرع أنا في تجميع حطامي وتجفيف دموعي

– بوسعك أن تنام هنا بدلاً من النوم في دارك.

لم يقل شيئاً واكتفى بالجلوس بجواري، لم نعد نشعل شمعة، لا نحاول أن نقهر تلك الظلمة ولو بعود ثقاب، وفجأة وجدته يقول لي:

– أخشى أن تتسرب تلك الظلمة إلى داخلنا فلا نعد نرى النور.

احتضنته وبدأت أبكي، تمنيت لو كان يحاول أن يمزح، لكن هناك أشياء معينة لا ينبغي أن نمزح بها، همست:

– أرجوك لا تخفني، انظر إلي، أنا هنا، أنت تلمسني، تسمعني...
– لكنني لا أراك.

في داخلي كنت أفكر في ملكوت ما هو مرئي، وما هو غير مرئي، وفي أن هذا الأمر يعد أحد الأسرار العجيبة التي تستحق التقصي فعلاً، كنت أتساءل ما الفرق بين أعمى وبصير؟... وصلت بتفكيري إلى حد الاعتقاد بان الظلمة التي نعيشها أكثر من مجرد غياب للضوء، إن ما نسميه ظلمة ببساطة هو شيء يغطي كينونة الأشياء وليس مظهرها، يتركها سليمة مرئية إلا أن حجاباً أسودا يعكس الظلمة في أعيننا، حاولت دفع أفكاري الخاصة بعيداً وعدت إليه قائلة:

– يجب أن نتعامل مع وجودنا هنا، على أنه أزمة وتمر، ربما يتغير الحال بين لحظة وأخرى، نعم، من الممكن أن يتغير الحال بين لحظة وأخرى، كلانا يجب أن يتمسك بهذا الأمل، بهذا الاحتمال، فمن غير المرجح ألا نفعل ذلك.

تلاحقنا الأسئلة، هل شعرنا بأي اختلاف طيلة السنين التي قضيناها هنا؟

يحتضنني، أنشق كي أغالب دموعي، أتنهد، أحتضنه بقوة، أقبله بلطف على خده، يبتسم ابتسامة ذات صوت حزين، يقول:

– سننتظر، سننتظر... لكن لابد أن تكون تلك البوابات في مكان ما، ولابد أن تكون المفاتيح في مكان ما، إن بقينا على هذه الحال، فأنا أفضل أن نموت، لا يسعني تخيل الأمر.

بقينا صامتين، حاولنا ألا نفكر، كنت أسند رأسي على صدره، وكان يعصر يدي في يده بحنان، بينما أحاول تنظيم أنفاسي كي لا يشعر ببكائي، لم نعد قادرين على التفكير المنطقي، وبدونا كأننا قد تخلينا عن كل أمل.

يتركوننا نفعل ما نشاء، مادمنا في الداخل أشبه بصرصار مسجون فـي صندوق زجاجي محكم الغلق، يزحف، يطير، يتخبط، ينقلب علـى ظهـره، يصارع بأرجله الضعيفـة، وهكذا نحن، وهكذا هم، يراقبوننا دون أدنى قلق.

ماذا سيحدث؟...

تنفسـت الصعداء عندما دخلت إلى داري، عرفت أنه موجود في بيتـي، ميـزت رائحتـه، جـوه، هـدوءه، كنت أعاني انزعاجا قوياً تركز في قلبي بشـكل مؤلم، فاضت دموعي وأنا أنظر إليه، كنت محتدة متوترة هائجة الأعصاب، كنت أرتجف، غمرته بقلقي الفائض، احتضنته بقوة خانقة، وأنا أود لو أضربه بكلتا يدي، كنت أبكي وأبكي، كدت أموت بكاء، كنت ضعيفة متهاوية، مستسـلمة بكل ما في من جارحة، سـاكنة سكون من لا يستطيع الصراخ، وكنت ذاهلة ذهولا مخيفا، لم أكن أفكر في شيء، كنت كمن غاب عن الدنيا.

كان فـي الفتـرة الأخيـرة يأخـذ بالغيـاب عن البيت في أوقات غير متوقعة، ويطول غيابه لفترات غير معلومة، وكنت قد تعبت من الانتظار والخوف والقلق والبحث، ومن الجزع الذي يستولي علي خلال غيابه والذي كنت أجهد حتى أدفعه عن قلبي دون جدوى، كنت متعبة جداً في تلك الليلة من تأثير الهواجس والأفكار السوداء علي، فهو لم يعد

إلى البيت منذ يومين، يومها كنا قد تعشـينا وجلسـنا نتحدث قليلاً، ثم قمنـا نـأوي إلـى الفـراش، وبعد أن غرقت في النوم، طرقت أذني ضجة مصدرهـا بـاب الـدار، فهببـت مـن رقدتي خائفة مضطربة خافقة القلب، قمت وسرت نحو الباب وأطرافي ترتجف لأتأكد أنه قد خرج.

كنت لازلت أحتضنه، وكانت المشاعر والانفعالات تتوالد بكثافة في نفسـي، ابتعدت عنه قليلاً ثم أخذت أنظر نحوه نظرة مسـتريبة كأنه خان ما كان عهدا بيننا، واجهته قائلة:

– أنت بت تجعلني حزينة فوق حزني...

خفض بصره إلى الأرض، وكان يتكلم كلمات هامسة غير مفهومة وكأنه يتكلم بمفرده، كان في وجوم تام، شاحباً، ويداه ترتجفان بشكل ظاهـر، احتضنتـه مـرة ثانيـة بـكل سـكون وليـن، كان فـي أشـد حالات الذهول والتشـتت، اعتذر طويلاً وهو يمسـح عينيه من فيض الدموع، وبدأ حديثه:

– سوف أخبرك بما حدث في اليومين الماضيين، على الرغم من أنه لا رغبة لدي في الكلام، خرجت أبحث عن إجابة للسؤال الدائم المستقر في أعماقي، خرجت غير مهتم بشيء في تلك الليلة اللعينة، أصابني برد شديد، كنت أسير وأنا أستشعر عمق الضياع الذي وجدت نفسي فيه، كان الوقت قد جاوز الثانية صباحاً، كنت أخترق الساحة متوجهاً نحو الجسر، كنت أجول في ما يشبه الفراغ، ما يشبه العدم، كنت حزيناً بهدوء، صامتاً في داخلي، لم أدر في أي عالم أعيش، عبرت الجسر، كنت هادئاً في الواقع، بل يمكنك القول بأني كنت في غاية الهدوء والاستقرار، لم يكن يقلقني سواك، ومن أجلك عدت.

وهكذا لم يرو أي شيء إلا أنني كنت أعلم ما لم يروه وأنه ظل هائمـاً علـى وجهـه فـي الجوفـار ضائعاً بلا خارطـة أو دليل، أراه بعيني كل لحظـة يمـوت، مجـروح مضطـرب، أعـرف أنه ذهـب غير راغباً في العـودة، لـم يعـد يحتمـل، فقـد كل أمـل في الخروج، لـم يعد يفكر إما

في الموت أو في البقاء هنا، أن يتخذ قراراً بنسيان كل ما يتعلق بحياة كان يحلم بها خارج هذا المكان، والحق أنني كثيراً ما راودتني ذات الأفكار، لذا كنت أفهم جيداً كل ما يحدث له، كان يوماً يفكر في البقاء ويوماً يفكر في الانتحار، وفي كل يوم كانت تضعف إرادته ورغبته في الخروج، كان يغوص في شعور مبهم غامض، وكنت أنا أحاول البقاء هادئة راسخة ثابتة قوية في مواجهة البغتات، إلا أنني كنت أدرك حقيقة الاحتضار الداخلي الذي بدأه، لم أتمكن من الهرب من هذه الحقيقة، وكنت أوغل إلى أمد لا أدري قراره ولم يكن أمامي سوى الانتظار.

يتجشـأون فتخـرج رائحة لحمنا مـن أفواههم، هؤلاء الذين تتقزز النفس منهم...

لن تـكون تلك خاتمة للأشياء

أرقد بجواره تحت غطاء عامر بالوسـاوس، أحاول أن أجذبه من سـتره كـي يبـوح لـي بمـا يطـل مـن عيونـه الخائفة التي تنظـر إلي نظرة المذنب، كان يسـتمع إلى كلماتي وهو مكروب، لم يكن يسـتطيع أن يميزها، والكثير منها لم يسـمعه، كان يبدو وكأنه يكافح كي يهز رأسـه في إيماءة صغيرة تدل على أنه يستمع إلي، كنت خلال الأشهر الأخيرة شـديدة القلـق حولـه، كنـت ألاحـظ أنـه مضطرب جـداً، يتلوى من ألم داخلـي عميـق، كان يتخبـط فـي فوضـى مطلقة وصار ضجراً متبرماً إلى أقصى حد، صار واهناً من الداخل، حين أنظر مباشـرة في عينيه كنت أرى تلك النظرة التي تنم عن إذعان داخلي صار معلناً.

يستطيع أن يموت اليوم، كنت أنا السبب الوحيد للتراجع أو ربما للتأجيل فقط، ربما يفعلها غداً أو في أحد الأيام المقبلة، سيفعلها في غيابي، آلاف الأشياء تخبرني بذلك، لدي ذلك الشعور أحسه وأصدقه، أرجو أن أكون مخطئة.

لـن أسـامحه أبـداً إن حـدث منـه مـا أتوقع، حين يمـر يوم وأجده لازال معـي أقـدر لـه ذلـك كثيـراً وأحبه كثيراً، وكنت في بعض الأحيان

ألـوم نفسـي إذ أجـل راحتـه مـن أجلـي، هل يجب علي أن أدعه يذهب فـي هـدوء وسـلام ودون إحسـاس بذنـب لـم يقترفـه، لكن أيوجد ذنب أكبر مما ينوي القيام به؟!...

كان ممزقـاً، نصفـه كان قـد قـرر المـوت، ونصفـه الآخـر يخاف أن يفقدني، كنت أشـعر كم هو مرهق، وكم هو يعاني، وكنت أشـعر وكأننـي أتجـاوز حقـي وأننـي صرت عبئاً عليـه، أجبره على المواصلة، وكان أكثـر مـا أخشـاه إلـى جانـب الخـوف من فقدانه هو أن يفقد آخر أمل في رحمة ربه.

حين يذهب أفتقده كثيراً، أفكر فيه في كل لحظة، ينتابني الخوف مـن ألا يعـود أبـداً، وحيـن يعـود وينضـم إلـي يكون هـذا أكثر ما أحمد اللـه عليـه، أشـعر بالرضـا التـام وأننـي لا أريـد أكثـر من ذلك شـيئاً، لا يفارقه أبداً التفكير بالخروج، كل الأشياء تشجعه على الموت عدا أنا، بت أحاصره كي أحتفظ به حياً، وكان هو لا يعرف سـر تمسـكي بهذا الاستمرار العقيم.

لـم يعـد طـوال خمسـة أيـام، كان الوقت يمر ويحل المسـاء ثقيلاً مرعباً، وحين عاد إلي اسـتقبلته بنفس الطريقة، أحاول أن أبتسـم برغم كل شـيء، لـم أعـرف مـاذا حـدث له هـذه المرة، أضغط على يده دون أن أقـول كلمـة، ظـل صامتـاً لفتـرة طويلـة وسـكت أنا أيضـاً، ثم بدأت حديثي قائلة:

– خلقنا كي نعيش حياة نبيلة لم أشك في ذلك أبداً...

– ليس لي رغبة بعد الآن في الانشغال بهذه التناقضات...

يشـعر أننـي أدركـت مغـزى جوابـه هذا، يدرك مـدى خوفي، ينظر نحوي، يبتسـم مع أنه كان مفعماً بالأسـى، حاولت أن أفهمه أنه ليس على حق، وأننا عندما نحاول ينبغي ألا نعيق أنفسنا بتساؤلنا عن جدوى المحاولـة، إننـا نحـاول ولا أكثـر، هكـذا يجب أن نفعل، أخذت أبكي،

أخبرتـه أننـي خائفـة، راح يهـدئ مـن روعـي، ويحدثني عن أن غيابه لا يعني أنه سوف يتركني، إلا أنه ورغم توسلي رفض أن يعدني.

ارتبكـت روحـي لهـذه المفاجـأة غيـر المحتملـة، كنـت أتماسـك بصعوبة، يقتلني الخوف من أسلوبه في التفكير، أدركت أنه ليس أمامه سوى بعض الوقت، لقد تحطم شيء ما في إرادته، بدا وكأن روحه قد انفصلت عن الواقع وأخذت تتهيأ للخروج، بركان من الحب والأسى يمور في قلبي، أراه يفقد قوته وشبابه وثقته، كان يبدو منهكاً جداً في هذه الأيام، قوته تضمحل يوماً بعد يوم، لم يعد يسـتطيع أن يبقى هنا أكثر من ذلك لم يعد يستطيع أن يحتمل أكثر من ذلك، وأنا أتمنى أن ينتظـر قليـلاً قبـل أن يقـدم علـى هـذا الأمر، كنت في بؤس بالغ لا أزال أحلم بمعجزة.

كم هو بحاجة إلى السكينة، وأنا لا أستطيع أن أمنحه ما هو بحاجة إليه، هو بحاجة إلى راحة أبدية لا يشعر فيها أبداً بالتعب، كم أحسست أنه متعب، أحس بآلامه التي لا تحتمل والتي ليست تشفى، كنت ألفه بحبـي وأغلـق عليـه كل منفـذ نحـو راحتـه، وأحـس أننـي الوحيدة التي تحرمه من تلك الراحة، من القسوة على المرء أن يعرف أنه ليس حراً، سوف يغادر هذا المكان غير واثق من شيء، هكذا سيفارق الحياة، أما أنا فلن يفارقني هذا البؤس المطبق.

في وطن الحق الضائع... اتركوا كل أمل...

انعتاق من الألم والفعل

كان يوماً لم أر أكثر منه كآبة، وجدته معتم التقاطيع، وحين تعرفت على العينين، كنت مروعة بقدر ما كنت متألمة، كنت أرتجف بوهن، لم أجد أية قوة في جسدي، وكان شعوري بالفقد لا يحتمل البتة، بدأت عند ذاك أحس بثقل مفاجئ في تنفسي، كأن حجراً ثقيلاً رهيباً حط على صدري، أخذت ضربات قلبي تبطئ وتبطئ، كنت أتهاوى وأنا واقفة أنظر إلى وجهه وأتهاوى وأتهاوى، كل هذا ما فاجئني أبداً، إلا أنني ما استطعت إمساك نفسي، هذا الفقد وبقائي وحدي في صورة مرعبة وسط هذا المكان، لدرجة أنني ما عدت قادرة على البقاء على قيد الحياة.

لم تبق لدي أية قوة، انطرحت في الفراش طوال الأيام التالية، كنت أشعر بآلام مبرحة، كان شيئاً قد انكسر في صدري، عرفت أنني يجب أن أموت، الآن لم يعد لدي أي اعتراض على الموت، صار الألم كلسع النار، لم أصرخ، لم أقاوم، وكذلك لم أحقق السلام أبداً مع هذا الألم، وكان يصعب علي كثيراً أن أتحمله، كنت أشعر أنه من السهل جداً أن أموت في أي لحظة، بدا الموت قريباً جداً، أقرب إلي من أي وقت مضى.

أحسست أن حزني الذي لا يحتمل قد يدفعني إلى الانتحار، هل أستطيع الاختيار، هل أستطيع أن أقرر رغبتي، لا أعرف أين أجد القوة، لم أعد أخشى أن تنطفئ تلك الشعلة التي جعلتني أقاوم طيلة تلك السنوات، حاولت أن أتماسك بكل ما بقي لي من قوة واهنة في هذا المكان، هل أستطيع أن أفعل ذلك وحدي؟ هل أستطيع أن أكون حيادية وساكنة تجاه كل هذا الجنون؟ كنت في كل يوم أندهش من بقائي على قيد الحياة، كنت أوقن أن الموت قد لمسني، أكاد أدرك اليوم معنى قلة الصبر التي تدفعنا نحو اللايقين، أشعر الآن أنني لم أكن أعرف من أمر الحياة شيئاً، وأنني كنت لا أزال أجهل كيف تمكر بنا الحوادث.

كان دائماً ماثلاً في مخيلتي، كان موجوداً في كل مكان، يناديني فأتبعه، أتوسل إليه كي ينتظرني، كان هو الحزن والسعادة والخوف والحب والحياة، والآن صار هو الموت، كانت ابتسامته الأخيرة تبدو في غاية العجز كما كانت في غاية البشاشة، والآن وفي أحيان كثيرة أرى وجهه كغيمة كبيرة في السماء يبتسم لي ابتسامة حزينة مذنبة خجولة مما سببه لي من ألم، كنت أستمع إلى كلماته التي لم يقلها قط:

– كان لدي أملاً عميقاً عندما عرفتك، وأنا الآن أعرف أنني لا أستطيع أن أفعل ما يفعله الرجل الحقيقي، وأنني لن أبلغ هذا الأمر، وأنني في هذا المكان لن أستطيع يوماً أن أكون رجلاً، هذا المكان لا يسمح بوجود الرجال، ولا شيء يحبط الرجل أكثر من معرفته بأنه لن يتمكن يوماً من القيام بأفعال الرجال، فالرجل ليس هو من يطارد الغريزة، وليس الرجل هو من يمنح اللذة لامرأته، الرجل هو من يحمي امرأته، من يملك أمره وأمرها، مصيره ومصيرها، هو من يملك حريته كي يمنحها حريتها، هو من يملك قراره، لذا أحس الآن أنني يجب أن أهجر الحياة، لن أكون بجوارك مادمت غير مكتمل الرجولة، أنت تستحقين رجلاً، أعلم أنك لن تجدينه، سأنام وسط المقابر كي أدفن ألمي الذي لا يطاق وعاري،

عزيزتي لم أستطع أن أنتظر، كان يجب أن أرحل ولم أكن بحاجة ولم تكوني أنت بحاجة كي أخبرك بهذا، كم كنت أتمنى أن أبقي أصابعي محيطة بقلبك، كان ذلك أروع أحلامي كلها.

هذه هي الأفكار التي ظلت تلح عليه وتعكر صفو روحه، خاض صراعاً طويلاً مع نفسه إلى أن وصل إلى هدوءه الحق، كان يعلم جيداً أنني أبحث عن القوة والأمان، لم يضعف احترامي وحبي له، فليرحمه الله وليجمعني به، وحسب تلك الأفكار التي كانت تعتمل في روحه، كان لا يخاف أن يذهب ويتركني وحيدة، إذ أن وجوده لم يحقق الانتصار من أجلي، هل كان شجاعاً بانتحاره؟ هل أراد أن يأتي بفعل قوي لمرة أخيرة في حياته؟ أم كان فعله هذا نهاية لحياة مليئة بالعجز والخوف؟ هل الانتحار شجاعة أم جبن؟ هل الاستمرار في الحياة شجاعة أم جبن؟ أنظر نحو تلك الغيمة، أحدثه:

- بعدك لم يبق لي أحد هنا، سوف أنتهي كما بدأت في هذا المكان وحيدة تماماً، هل أراحك الموت؟ أين روحك؟ لم فارقتني هي الأخرى؟ هل كان جسدك هو روحك وروحك هي جسدك؟ صار قلبي فارغاً مثل هذا المكان، كنت حتى اللحظة الأخيرة أشك في أنك ستذهب، لم أكن آمل منك أن تفعل بي كل هذا، تميتني وتميت حلمي، كم كنت أحلم أن نحرر أنفسنا وننطلق معاً عائدين إلى الوطن الحق، ترى لم كتب علي أن أبقى من بعدك، أن أعيش من بعدك، أنا لا أعيش، أنا لم أعش إلا فيك، بعد أن تواريت وأضحيت بمنأى عني لن أعرف الحياة، أعرف بحق أنك أحببتني وأنا أحبك... اطمئن... أحبك... أسامحك وأحبك... لقد خلفت لمسة رقيقة في قلبي هي ما تجعله لازال يرتعش، كنت أتمنى لو أجعل نهايتك أكثر رقة، أتمنى لو أتمكن من أنفخ فيك الحياة أن أفرغك من الموت... تذهب الغيمة، تتبدد...

أطلق تنهيدة وأسير، أمشي بلا هدف، بلا خوف، بلا رغبة، بلا حياة، بلا حرية.

آه

ما أقسى كل هذا!..

الذي لا يأتي...

بعـد كل مـا جـرى، كان علـي أن أعيـش، أن أواصـل، لكننـي في مـرات كنـت أطيـع غيبوبتـي، كان مـا يحـدث لي قوياً جـداً، وكان علي أن أمرن نفسـي كثيراً وأن أوقظ رغبتي في الخروج من جديد بعد أن صرت خالية من كل رغبة.

كنـت قـد أوقعـت نفسـي فـي وهـم أنني سـوف أسـتجمع مراحل حياتـي، كنـت أراقـب الأحـداث التـي تجري أمامـي، ورحت أظن أنني أمثـل دوراً لـم أعـد أصلـح لأن أكـون فيه، وفـي أحيان كنت أقول أنني يجـب أن أديـر ظهـري إلـى كل مـا يجـري ولا أدفع نفسـي إلى تصديق مـا هـو كائـن، كنـت قـد تعبت، ومن دون أن أدري كنت قد استسـلمت للوضع الذي أحلني فيه الجوفار، لم أكن يوماً إلا متفرجة على حياتي التي لا أصلح لتمثيلها، حتى أنني لا أشعر كمتفرجة بأي شيء يخصني فيما أراه.

لقـد توهمـت تلـك الأماكـن توهمـاً، يجب أن أصـدق ذلك حتى أسـتطيع أن أنتقـل إلـى تجـارب أخـرى، مـا عشـته كان مجموعـة مـن المجازفات التي كنت ألقي بنفسي إليها، مجازفات من أجل الخروج، كنت أدفع بنفسـي المترددة المرتبكة إلى ما لا تسـتطيعه، وكنت أتوهم

قوة في داخلي لست أمتلكها، ما توصلت إليه جعلني أتساءل إن كان ما رأيته صحيحاً، إذ أجد نفسي مصدقة له في أوقات وفي أوقات أخرى أروح أفكر في تردد وأتساءل، كيف أستطيع أن أتحرى، كيف أستطيع أن أجزم.

لا أعرف إن كان ذلك صحيحاً أو غير صحيح، أحتاج إلى أن أعرف، أحتاج إلى أن أخطو خطوة أولى تبعد بخطوة واحدة عن الخط الذي أقف عليه، أن أبدأ من جديد، أن أحسب كل الذي حصل لي في هذه السنوات لم يحصل أبداً.

كلما نظرت إلى هذا المكان شعرت وكأنني في منفى، وأنني على الجانب الخطأ من الحياة، وأنه علي أن أفكر كثيراً كي أجد سبباً واحداً للبقاء على قيد الحياة في هذا المكان، إلا إنني أفكر في أن ما أنا قيده ليس بحياة.

رحت أطأ تلك الشوارع مرة أخرى في كآبة باردة في هذا الشتاء المظلم الحزين، أتلفع بمشاعر الوحشة وبردائي، عبرت تلك الأمكنة مرات عديدة في الحقيقة، وكان علي أن أتابع السير، أن أهرع قاطعة الطرقات فيما الجنون والبؤس يلفان كل شيء حولي، وكان كل شيء يتكرر، نفس الأيام، نفس الآلام، نفس الهموم، نفس القلق، نفس الانفعال، نفس اليأس، نفس الخواء الداخلي على هذه الأرض الخربة.

كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي كنت أفعله، وهو ما سأظل أفعله في الأيام القادمة أيضاً، وكل ما أعرفه هو أن ذلك لابد أن يحدث، وأنه علي أن أتقبله.

كنت في تلك الدقائق والثواني العطنة التي تمر ببطء، أرقب هذا الذي أنتظره، أقضي بقية العمر المنكود، أبحث عن ممر لن أسير فيه يوماً باتجاه باب لن أفتحه أبداً، يتركز العذاب علي ويتعقبني بإلحاح

ويصل بي حتى آخر درجات ما لا يطاق، أجلس لأراقب الأيام وهي تأفل، أفكر في الغد غير المؤكد، وفي الحياة التي تسير في مسارها الخاطئ، وفي الماضي الذي لن أشفى منه، في أشلائي التي لن تجد من يجمعها.

على طرقات هذا المكان تراجعت الآمال، كافحت لسنوات لأستطيع الخروج من هنا، لم ينطفئ ذلك التوق، حتى وأنا أهوي في قاع بئر معتم، غير أن أسوأ ما في الأمر هو أن هذا التوق بحد ذاته هو ما لم أعد أقوى على تحمله، وهو ما كان يضرم بداخلي مشاعر عنيفة وحنقاً ضد هذه الحياة العقيمة، وكان يتحول هذا التوق إلى توق ضاري وحافز مجنون ورغبة في تهشيم شيء ما، أي شيء، حائط، مبنى، رأس رجل، أو رأسي أنا، كانت رغبتي في الوصول إلى تلك الحياة المحجوبة عنا مصدر ألم، كان هذا الاضطرار الداخلي يخلق ألماً يزداد بفعل تلك الأيام الجوفاء الجاحدة.

لـم يعد من الممكن تجـاوز واقع الحياة الراهنة، فات زمن تدارك الأخطاء، ولابد للخلاص من ثمن، لابد أن يولد شيء ما، لابد أن يغتسل التاريخ، لابد من طلوع شمس تضيء المكان حتى يتكشف كل شيء، حتى يتلاشى كل هذا الضباب الأسود.

الماء المخلص

أن تنتفض السـماء بقوة تبلل كل شـيء حولنا، الأمر سـهل جداً بالنسـبة إليك، أن تهطل علينا من السـماء مباشـرة ماء مقدسـا من أكثر الأنـواع فاعليـة، مـاء يـروي أجسـادنا القاحلـة، ليسـاعدنا أن ننتقـل إلى البشرية الحقة، أن نصير جزءاً من سدى الحياة ولحمتها.

مطر يساعدنا على أن نتمكن أخيراً من التنفس، مطر كأنه الطوفان ينظف السـماء فنرى الشـمس ويظهر القمر وتلتمع النجوم، مطر يغسـل أنقاضنا وخرائبنا، مطر يغسل وسخ التاريخ، يمسح جسد الأرض، يغسل النهـار، مطـر يجعلنـا أكثـر اخضراراً، مطر يمنحنا أسـماء جديدة، يعلمنا الرفض، مطر يعلمنا الرقص والحب، مطر يطرح الغبطة على جباهنا.

أن نصحو يوماً ونجد أن سـر الأشـياء جميعاً قد وقع في أيدينا، إلى متى ستسـير بنا الحياة على هذا النحو؟!... خيبات متتالية، أفعال مملة، عدم انفساح الأمل، لا أحد يهتم، لا أحد يحتج، لا أحد يتحمل، لا أحد يملك القدرة على التغيير، هنا لا يحق لنا أن نصرح بالحقائق علناً، حتى وإن صارت تلك الحقائق واقعاً معلناً ملموسـاً، الحياة هنا

تفـرض علينـا أسـئلتها الخاصـة، نعيـش تناقضاً فريـداً من نوعه، لا نجد مـا نقولـه، لا إجابـات لدينـا، نقـف كالبكم متهالكين باستسـلام، نتطلع بأعين معذبة متسائلة، ما معنى كل هذا؟... وأي مبرر نستطيع أن نمنحه لأنفسنا كي نستمر؟...

نتسـاءل ونتسـاءل، ولا نجـد معنـى أو تفسـيراً، لـم نعـد قادرين على ممارسة فعل العيش الاعتيادي، غربة وعذاب ووحشة، نعيش على ساحل مهجـور مـن بحـر الحيـاة، علـى وجوهنا علامات حيـرة وظلم، نحدق في الفراغ، نتأمله بذهول، نغيب في الظلمة، نودع العالم ونستسلم لحالة السبات، وفي نفوسنا توق لممارسة الحياة، بينما نواجه معركة لا نتلمس حدودها، ولا نستقرئ فيها جوانب الشدة والتراخي والتقدم والتراجع، ومع ذلك نصدق أنه يجب علينا أن ننتصر، وأن لدينا وقت قصير جداً للنجاة.

نتكلم نحن من أجبرنا على الصمت، نتكلم ونتكلم ونتكلم... ولا أحـد يكتـرث، يمـر علينـا كل وقت، خريف يذهب وشـتاء يعود، نعيش في دورة أبدية، وثمة لحظة لا تأتي، كل شيء يمر، كل شيء يموت، كل شـيء يحيـا مـن جديـد، لا أحـد يعـرف ولا شـيء كاف، ولا يبقـى سـوى كل ما هو هباء، الصمت يسـاوي الكلام، فحين نتكلم، تحتضر الكلمات، تنطفئ الحروف سريعاً، وتحترق الألسنة.

ومهمـا يبلـغ بنـا الألـم لا نسـتطيع أن نؤجـل المصيـر، لا بديـل للاسـتمرار ولا مجال للتوقف، نركض خلف حياة ليسـت تنتظر، نرى بأعيـن غائمـة أسـراراً وأشـياء غامضـة ممتـدة، لا نمسـك بذلك العميق المسـتتر المتـواري بالتـراب، إلا إننـا نحـس كل مـا نجهله، ومع الوقت نكتسب قدرة عميقة مريرة على رؤية الواقع الخفي، نصغي ولا نفهم، أرغمنا على حمل أثقال ننوء بها، نتحمل المتاعب والآلام، نبحث بين التـراب، فـي الليـل، نطـارد الفجر، نقطـع الطرقات جرحى، تبددنا أدنى لمسـة من الزمن، نتفتت غباراً، نتبدد كالهواء، في تلك العتمة لم نعد نذكر أي فجر، كسرت مزامير الأمل، وزمن الفرح لن يكون هنا.

إذا اكتفينا بما نراه، وتخلينا عن توهم ما لا نراه، من يجزم بأن ما نراه ليس وهماً...

هل نستسلم للأرض أم نتشبث بالأرض؟...

يومها أدركت استحالة إدراك الجوفار بالنظر وأنا أقف على أرضه، وأنه لن يبدو على حقيقته إلا إذا ارتفعت عنه وتطلعت إليه من نقطة مغايرة بعيدة ومرتفعة بقدر الإمكان، كي أتمكن من إلقاء نظرة كلية شاملة، توقفت عند عدة أماكن مرتفعة مثل التل والجسر وبعض البيوت المرتفعة وكنت أرى مشهداً مختلفاً للجوفار في كل مكان من تلك الأمكنة.

لذا بدأت أتجه ببصري وبكل تفكيري نحو المئذنة التي ترتفع فوق البيوت كافة، انشغلت طويلاً بأمرها، أكثر من التطلع إليها والنظر إلى سموقها، أتأمل نقوشها، أطوف حولها مراراً، أحدق في أحجارها وأتفكر في أسرارها، أصابني قلق، أكن لها رهبة واحتراما، مهابة تكوينها وحرمتها الدينية، أما المشكلة الكبرى فتكمن في حارس المسجد وسره المكين في رؤية كل من يحاول التسلل بالقرب من المسجد حتى في أحلك الليالي وأشدها ظلمة، لثلاث ليال متتالية أخذت أفكر بالأمر بجدية تامة، وكلما هممت بالشروع يأمرني صوت داخلي بأن أنتظر، قلق غامض يسد علي الجهات إلى أن وصلت إلى لحظة فاصلة، قطعت

المسافة من داري إلى التل ومن التل إلى المسجد، لجأت إلى المئذنة متوثبة منطلقة.

قدمـت إليهـا مـزودة برغبـة هائلة في المعرفة والوصول إلى تخوم المجهـول، وأمـل فـي أن أتوفـر علـى مـا يمكنني مـن الإحاطة بالحالي والاطلاع على الآتي، ارتقيت التل المرتفع بميل خفيف بحيث لا يكون مجهـداً وعـراً أثنـاء تسـلقه، حتـى ليخيل للبعـض أنه ليس بهذا الارتفاع الذي يشعرون به عند الوصول لقمته، ذهبت إليه وفي عيني تعب ورجاء يمتزج بخوف، أشار إلي بعدم الجدوى، أبديت توسلاً:

- لكني أريد أن أخرج...
- لن تكون رغبتك سبباً في أن تخرجي...

أصابنـي وجـوم، نظـر نحوي طويلاً ثم سـمح لـي بالتقدم وارتقاء السـلم، أشـار لي إيذاناً بالتقدم واجتياز العتبة، أبديت وجلاً، اسـتدرت أنظر نحوه، أطرق وانحرف مبتعداً.

خالجني القلق المصاحب للشروع، للبدايات، فأنا بصدد بداية قد تنقلني من حال إلى حال، من واقع أعيشه في جوفار لا ألم بمساراته وتخومه إلى اكتشاف محتمل يمكنه أن يغير كل شيء، على الرغم من القلـق سـرت بداخلـي بهجـة خاصة صاحبـت ارتقائي، كنت أصعد إلى أعلى المئذنة، أسعى لاكتشاف نقطة غير مرئية غير مدركة غير محددة، ربما أكون أنا أول من يتمكن من تعيينها، نقطة ربما يغير الوصول إليها كل شيء، فكافة الاحتمالات قائمة.

فـي اللحظـة التـي بـدأت فيها الوصول إلى أعلـى المئذنة والفراغ العلـوي صاحبنـي قلـق وخـوف، إلا أننـي عنـد بلوغـي القمـة ابتهجت وغمرني الأمل في تلمس أغواراً مجهولة واكتشـاف واقعاً لم ينكأ من قبـل، وبـدا علـي بعـض الارتياح، هواء سـار يحيطنـي، هادئ ومطمئن، أطلت النظر إلى الجوفار، كنت وكأني أتعرف عليه لأول مرة، استغرقت

فـي تدويـن الملاحظـات عـن كل مـا أعاينه، شـعرت بأنني وقد وصلت إلى هذا المكان فإنه يتوجب علي العمل الشاق والمواصلة، وإن حدث هذا فسوف أكتشف أماكن لم يلجها أحد من قبل ولم يجرؤ أحد على اقتحامهـا، إلا أننـي لـم أكـن علـى يقيـن مـن إذا كنت أنا أول من يصعد إلى هنا، أم أن هذا المكان مطروق من قبل، وهناك من بلغ هذه النقطة من قبلي إلا أنه هبط غير مخبر بما اطلع عليه.

فـي الفـراغ العلـوي بـدا المـكان غيـر المـكان، حتـى الزمـن بـدا إيقاعـه مغايـراً، قضيـت أيامـاً يقظة، تنقضي السـاعة وكأنها شـهر، ضوء ثابت الدرجة لا يتغير، لا ظلام، لا تعاقب لصبح وظهر، بدا لي أنه لا علاقة بما أراه من هنا وبما كنت أراه من أسفل، بدوت حائرة، تشعبت الأسـئلة والاستفسـارات، كان علي أن أواجه بمفردي كافة المثبطات، أرى هـوة سـحيقة لـم أكـن أراهـا من قبـل، أرى العتمة جاثية، لكنها لا تحجب بصري عن رؤية الأشياء، أراها كجزء من مكونات المكان، أرى الفراغ ولا نهائيته، يبدو المكان كله وكأنه مغلف بهواء ثقيل خامل، إلا أننـي كنـت أشـم رائحـة الأرض العتيقـة، لا أرى أيـة جدران صلدة ولا أية أبواب وهمية، أرى مسارات ومهاوي محاطة بالفراغ، فراغ عند كل حافـة، عنـد كل مدخـل، يبـدو الجوفـار صغيراً إلا أنـه يبدو ثابتاً مكيناً، يأخذ شـكلاً لم أعرفه من قبل، ليس بالمسـتدير ولا بالمربع، ولا يبدو شـبيهاً بأي شـكل من الأشـكال المعروفة، بدا المكان كله وكأنه يمت إلى زمن عتيق.

الآن لدي صورتين للجوفار، صورة علوية وصورة أرضية، الأولى تمت إلى سنوات من التجوال والبحث وعمل الرسوم، والثانية هي تلك التي يقع عليها بصري في هذه الأثناء، وبقدر ما فوجئت بالأمر، بقدر ما شعرت براحة وأمل غامض في التوصل إلى جديد، كنت كمن تلقى وعداً غامضاً بالوصول، في انتظار إشارة توهمت أنها لن تظهر إلا لي، في انتظار لحظة ستأتي وعندها ستتكشف لي كافة الأسرار، كنت أرقب

حلـول تلـك اللحظـة فـي يقظـة لـم تهن وحدة وعي لم تحد، أما مغالبة النوم فقد استلزم الأمر جهداً كي ألتزم يقظة حتمية لا مفر منها.

وحين فقدت كل أمل، انهرت وبكيت، لا أعرف كيف استطعت جـر جسـدي إلـى الداخـل، أفقـت من إغماءة عميقة، شـعرت به يجس نبضي، لم أكن في وضعية جيدة، كانت تلك التجربة الأكثر إيلاماً في هـذا الليـل المهـول، أدركنـي اليـأس وكاد إيمانـي أن يتزعزع على نحو سـيء، وحين أخبرته بذلك وأنا أشـعر بخوف وذنب مريع، أخبرني أنه من الطبيعي أن يتناقص مع مرور الوقت وأن هذا يحدث للجميع هنا، وأن المعانـاة لـم تعـد تضفـي نبـلاً وإيمانـاً على صاحبها بقدر ما تضفي كل ما هو عكس ذلك.

وهكذا خاض الرجل في حديث طويل، وكنت أنا في حالتي الأكثر سوءاً، بائسة مستسلمة أستمع لهذا الرجل المجهول، دون أن أفهم شيئاً، أو حتى أحصل على وقت كي أفكر فيما يقول، فهو كان متدفقاً كعادته، يلاحقني بعباراته التي ما أن أتوقف على إحداها في ذهني كي أستوعبها حتى تلاحقني أخرى ثم تتبعها أخرى، وكان هو مستمراً لا يتوقف ولا يكف عن أن يخلق بكلماته أبعاداً أخرى من السر والإشارة.

كان الخوف وحده هو ما دفعني إلى النهوض، غادرت المسـجد بعـد تلـك الجلسـة الطويلـة مـع الحارس المجهـول، ذهبت إلى داري، اسـتلقيت في فراشـي كما أنا دون طعام دون اغتسـال، أمسـكت بدفتر، أردت أن أنقـل إليـه كلمـات هـذا الرجـل، لكننـي لـم أتمكن من ذلك، كانت الكلمات اسـتثنائية وقوية إلى حد لم يمكنني من تدوينها، وفي أقـل مـن دقيقتيـن، كنـت قد اتخذت قراري بعدم الذهاب إلى المسـجد وإليه بعد الآن، وبدأت أفرغ ذهني من كل فكرة تقول بأن هذا الرجل هو من يملك السـر، وأن كلماته ورموزه هي التي سـتؤدي إلى الحل المنتظر.

إنـه ليـس سـوى رجـل مجنـون يهلـوس، قلتهـا بصـوت عال كي أسمعها جيداً كصوت خارجي وليس مجرد هاجس داخلي، هذا الرجل يخدعني، يخدعني بتلك الكلمات التي لا أستطيع أن آتي بمثلها، كنت أصنع لنفسي صورة رجل يحمل لي الخلاص، وهو لم يكن في الحقيقة سوى رجل مريب، إنه رجل مريب، مريب جداً.

أعلم هذا من البداية أدركته جيداً، إلا أن الأمل، وحده الأمل هو مـا يدفعنـا باسـتمرار نحـو كل مـا هـو خادع وزائف وشـيطاني، وأنا لم أعد أسـتطع أن أخدع نفسـي، لن أتحول إلى مهووسـة تسـير خلف هذا الرجل، هذا الرجل أخطر مما أتصور ويلعب هنا دوراً سيكون اكتشافه أمراً مفجعاً، كان لدي شعورا قويا بكل تلك الأفكار التي لا أملك ما يثبتها سـوى ذلك الشـعور اليقيني، بت أرى كل ما كان ينطق به وكان يأخذنـي ويسـيطر علـي تمامـاً، ليس سـوى بضعة أحـرف زائفة، الهدف منهـا إطالـة خمولنـا ليـس إلا، وزيـادة تغييبنـا لا أكثر، والخوض بنا في متاهات فكرية وألغاز عقلية لا حل لها ولا تنتهي، كان يجب أن ألغي كل شـك وكل أمـل منـذ البدايـة، صحيـح أنـه بدا شـخصاً مطلعاً عارفاً وواسـع الإحاطة، وأنني تأثرت بكلماته وبمفرداته الغريبة غير المألوفة التي أثارت الأمل عندي إلى أقصى حدوده، إلا أنني أقول الآن أن هذا الرجل لا يملك شيئاً ولا يعرف سراً.

وطن بكر

مـن أيـن لنا بوطـن بكر، وطن لم تنتهك حرمته، وطن لا يشبه فتاة صغيرة اغتصبت على يد ألف عاهر وعاهر، أكلوا لحمها وشربوا دمهـا، استخدموها حتى صـارت كالممسحة... من أين لنا بوطن بكر؟...

لا مكان

بـات الجوفـار أشـبه بالقبـر المفتـوح، عند هذا الحد صار الجوفار مروعاً، لم أعد أحتمل العيش هنا، فأنا تعسة وعاجزة، أسوأ السجون هو العجز، أن يتم إجبارك على ممارسة العجز، أن تمنع عمداً عن العمل، وسـط هذا السـجن أسـتعطي لحظات الوحدة لحظة لحظة، أنغمس في عزلة مثقلة، أعلي أن أعتبر نفسي بائسة أبداً؟...

فـي هـذا الانتظـار العقيـم، فـي هذا الزمن الـذي ليس يوجد بعد، نمضي في مدارات الكآبة، يحملنا موج اللحظات البطيئة، بينما السماء تمطرنا ضجراً، نعيش أياما مهترئة، نحمل أمنيات صدئة، ضاق الطوق حول الرقبة، وحيث أنه لا شيء ينشأ أبداً عن لا شيء، وأن هناك من هـم وراء كل مـا يجـري لنـا، فيجـب ألا نقـع في الفخ أبداً، فالتنفيس لا يزيـل التوتـرات، ونحـن لا يهمنـا أن يكـون هناك من يرغي ويزبد ويندد بالقـذارات، يهمنـا أن تختفـي القـذارات، وأن يختفـي هو أيضاً، سـحقاً لهـم، وسـحقاً لمـن ينصحنـا دائمـاً بألا نورد أنفسـنا مـوارد الهلاك، من

يدفعنا إلى أن ننصاع لتلك البقرة المقدسـة، من يكتب في ذم الحياة، من يكتب في مديح الموت، من يدعونا إلى معايشة الموت، وإلى رفع إصبعنا من على الزناد، وإلى أن ننتهي هنا، وألا نرحل إلى مكان آخر، وأنه ليس هناك مكان آخر، وأنه لا توجد أمكنة أخرى.

هكذا خلقنا الله

ها هي الساحة التي يطل داري عليها، يلفها نطاق من الأرصفة، وشوارع تفضي جميعها من جهة إلى تلك الساحة، ومن جهة أخرى تتفرع إلى شوارع تتخذ وجهات مختلفة شمالية غربية جنوبية شرقية، زقاقات ومنعطفات وشوارع وطرقات تؤدي إلى نواحي شتى، من أهمهم شارع طويل مستقيم ومتسع يؤدي إلى منطقة مرتفعة تسمى التل، يعتليها بناء لم نسبر غوره بعد.

إن ترسيم حدود الجوفار وإعداد خارطة مفصلة بكل ما يحتويه وبما يحيط به، لهو موضوع غاية في التعقيد، ومع الوقت يمتد ويتسع ولا ينتهي ولا يتوقف، وبما أني قد أخذت على عاتقي أن أقوم بتلك العملية الشاقة، فمن الجدير بي أن أكون كفؤا لهذا العمل وأن أحيط بالجوفار إحاطة العالم الذي أحصى كل شيء فيه علماً، فلا أغفل أصغر حجر في شوارعه، وبقدر ما أبذل من جهد، بقدر ما أشعر أنني أتضاءل حجماً أمام تلك المهمة، فأنا لا أصل إلى شيء فحسب، بل إنني لا أدرك مدى صحة ما أدونه وأعتمد عليه في ما أرسمه، أجالد اليأس والضجر، ألتزم الصبر وعدم الحيدة.

هبطت إلى الساحة ذلك المركز العجيب، وقفت أنظر حولي،

أتأمل هذا المكان الذي يمكن أن يقال أنه قد صار وطني، فأنا قضيت هنا سنوات متصلة لم أقضها في مكان آخر، إلا أن الرفض كان بداخلي نابضاً، إن هذا المكان لن يكون أبداً وطناً لي، إن لدي وطن ينتظرني، وطن سوف يعرفني نهره جيداً.

متوجسة مشيت أتلفت غير بعيد من الدار التي أسكنها، كنت مستوحدة ونفسي كلها وحشة، كنت في تلك اللحظة بلا عقل وبلا ذاكرة، كنت فقط أملك حلماً في قلبي المتوجس الخفاق، حلم بعالم أخضر آمن، كنت أتضرع إلى المجهول، كان كل شيء ساكناً، وكنت أنا لا أزال أتعلم الصبر، إلا أنني كنت أخشى أن يطول الانتظار، تباطأت في سيري وتغير إيقاع خطوي، كنت أسير متمهلة الخطى، لا أدري مقصدي، يطغى ما ليس له وجود ولا يمكن لمسه، أسير ما بين المباني والشوارع والنواصي، أبواب موصدة ونوافذ مغلقة، ربما كنت أعبر الموضع الواحد أكثر من مرة، لا شيء يعلق بذهني، كان المرئي المحسوس يتحول إلى صور مضيئة باهتة.

خلال سيري اكتشفت نفقاً ضيقاً، مطلي بلون أسود، على جدرانه خدوش بيضاء تشبه الحروف، نفق يصل ما بين الساحة ومن جهة أخرى يفضي إلى الجسر، ما أن يجتاز المرء هذا النفق ويدخل إليه حتى يشعر بانقباض شديد رغم قصره، وبعد اجتيازه يشعر بأنه يتنفس ويحيا من جديد، وبأنه قد نجا خلافاً لكل القواعد، عدة ممرات شبه دائرية وأنفاق أشد ضيقاً، مداخل مؤدية إلى المجهول، كان المدخل منها يتقلص شيئاً فشيئاً لينتهي إلى ممر بالغ الضيق، على كل جانب منه ثلاث ممرات.

غادرت الساحة، سمعت ضوضاء تتردد في جنبات أحد الشوارع، دلفت إلى هذا الشارع، قابلني رجل حاول إيقافي، أخبرني أن أركض في الاتجاه المغاير لهذا الشارع، حيث أن هناك عدد كبير من الناس يتعرضون لإطلاق نار، ولم يخبرني بأكثر من ذلك.

فـي هـذه اللحظـة صـدرت صيحة طويلة مكتومة من هذا الشـارع المظلـم، كنـت أنصـت إلـى صيحـات الفزع فأدرك مـدى التهديد الذي يحيـط بنـا، ثـم فكـرت أن تلـك الطلقـات تصدر حين يتـم عبور أماكن محددة غير مسموح بتخطيها، رأيت خلفي بعض الناس يغدون بسرعة، كانوا يتحدثون عن العدد الكبير الذي قتل.

وحيـن عـاد السـكون رأيـت جثثاً محمولة فـي طريقها إلى المقابر كنـت أعتقـد أن الخطـر غيـر حقيقـي، إلى أن أخذت الناس تموت بهذا الشـكل دون سـابق إنـذار، وفـي غيـر الأماكـن التـي كنا نعلـم بخطورة تواجدنـا فيهـا، تذكـرت وقتـاً كنـت فيه لا أعرف ما هو الموت، لم أكن أعـرف مـا هـي الجثـة، ما هو الإنسـان الميـت، وأنا الآن أتطلع إلى كل هـذا الكـم مـن الجثـث، لا أحـس بحزن ولا أشـعر بخوف كما كان في السـابق، بـل انظـر بوضـوح ذهـن إليهـا، أتأملها في صمت. وسـط هذه الأكـوام المكدسـة مـن الموتـى، خمدت ثـورة الخوف وهدأت النفوس المفزوعة الهلعة، صرنا في وقت وحشي، بتنا نرى من يقتل منا وكأنه حشرة دعست، لم تعد رائحة الموت تثير فينا أية مشاعر خاصة.

أن يبجـل المسـروق مـن يسرقـه... أن يقدس المنتهـك مـن ينتهكه...

لن تصل القصة إلى نهايتها الآن...

فـي الطريـق إلـى الـدار، كانـت الشـوارع تغص بالجمـوع، وجدنا الساحة وقد امتلأت بمجموعات واقفة تستمع لخطاب هذا الرجل ذو الأفـكار العظيمـة، وصاحـب الطريقـة الذهبيـة في التعبيـر عنها، للوهلة الأولى لا تخال الواقفين يستمعون جيداً، إذ يدير كل منهم رأسه نحو اتجاهـات شـتى، بينمـا كان الرجـل يتكلـم عن أهميـة التنظيم، وأننا لن نتمكن من فعل شيء من دونه.

أدلى الجميع بآرائهم، كان بعضهم متحمساً أكثر من البعض الآخر، وهنـاك مـن عبـر عـن أفـكاره بدون أية تحفظات، وكان ذلك الرجل هو صاحب الصوت الأعلى، والكلمات المتدفقة، وكان يردد السؤال بشكل متكرر خلال حديثه، كيف ستتمكن من مواصلة العيش هنا؟... العتمة تـزداد فـي كل مـكان، الانتحـار، المـوت الـذي يداهـم كل مـن يحاول الخـروج، كل مـن يقتـرب مـن اكتشـاف مكانا حقيقياً للخروج، وأسـوأ مـا فـي الأمـر، هـو أننـا غيـر متعاونين وغير منظمين أيضـاً، وهنا قاطعه رجل، كان يتحدث بهدوء شديد، لكن بصوت عال راسخ ومؤثر، بدأ حديثه قائلاً:

– كيف تتحدث عن التنظيم؟!... والفرد منا بات عاجزاً عن تنظيم أقل الأمور شأناً في حياته، هذا الجوفار لا يجلب إلينا غير الموت والظلمة والبؤس، أعتقد أننا سنموت جميعاً هنا في الداخل، وأن المسألة مسألة وقت ليس إلا، لن نموت من المرض، لن نموت مصادفة، ولا من الحوادث المتوقعة أو غير المتوقعة، سوف نقتل، أو سوف نقتل أنفسنا، أو سنقتل بعضنا بعضاً، لن يفر أحدنا من أن يكون قاتلاً أو قتيلاً، ليس علينا سوى الانتظار، يجب عليكم جميعاً التوقف عن كل شيء، توقفوا عن التفكير، عن البحث، لا أبواب، لا شيء ملموس، لا شيء حقيقي، توقفوا عن التفكير، توقفوا عن كل شيء.

عندما أثار ذلك الرجل كل هذه الأفكار، حرك الركود الآسن الذي استكانت إليه العقول، أطلق الشك والقلق والخوف، بعدها بقي صامتاً أبداً، وبقيت عيناه معلقتان إلى الفراغ، غرق في صمت غامض ملفع بيأس وندم، وبعد هذا اليوم، لم يلفظ حرفاً. أما نحن فغلبتنا كلماته، دخل الجزع إلى نفوسنا ونزل بنا إلى طبقات سفلى في عالم ضيق، هجمت الهموم على قلوبنا، وطافت الوسوسة بكل خلايانا.

أما الرجل ذو الأفكار العظيمة فقد استقبل هذا الحديث بهدوء بارد، وبدأ حديثه قائلاً:

– أهنئك على صياغتك الجيدة وملكتك اللغوية...

ولم يضف تعليقاً بعد هذه الجملة، ثم أكمل حديثه قائلاً:

– أسوار ضربت حولنا، أبوابها موصدة تحول دون خروجنا، لم يتمكن أحد من تجاوزها، طريقنا طويل وما أشقه في تلك الظلمة، يبتلعنا خضم الضياع الأكبر والهرب منه أشق وأعسر، فلنتجه إذن إلى تلك الأبواب بكل أفكارنا، لنجد مكانها، ونكتشف شكلها ومادتها، نفتحها إما عنوة وإما بالمكر، نهجم بغتة أو نخطط طويلاً، نفتحها وإن اضطررنا لتدمير الجوفار كله.

وبدأ بطرح أفكاره بشكل أكثر وضوحاً، فقدم إلينا الاقتراح الموفق من أي زاوية نظرنا إليه، لا يمكن القول أنها كانت فكرة متكاملة، من وجهة النظر الإنسانية الصرف، باختصار كانت الفكرة هي أنه وقد تأكد صعوبة أن يحاول كل منا الخروج بمفرده، لذا فقد كان الاقتراح أن نتعاون جميعاً من أجل إخراج شخص واحد يتم اختياره من بيننا وبذلك يكون لدينا من يساعدنا على الكشف من خارج الجوفار، تلك الفكرة الواضحة شعورياً كانت قد جرت على لسانه لاشعورياً، بما أنه لم يستطع أن يفكر بغيرها، وأوضح فيما بعد أن تنفيذ ذلك الاقتراح قد يطول، وكان يقصد من هذا أنه من غير الممكن أن نحدد الوقت المطلوب للتنفيذ، لا أحد يمكنه الجزم، ولكن وإن طال الوقت أو قصر ما يهم هو تنفيذ الاقتراح، وهذا يعني أن يتخلى كل منا عن التفكير في طرقه الخاصة لإخراج نفسه، وأن يفكر في الطرق الملائمة لوضع هذا الشخص هنا والتي تناسبه لكي يتمكن من الخروج، يجب أن نقرر الآن من الذي سنحاول إخراجه، قال أحدنا، ربما كان صاحب الاقتراح هو الأحق بأن يكون هو أول من يتمكن من الخروج من هنا، قال آخر، ربما كان صاحب الاقتراح هو الأحق بأن يكون هو أول من ينفذ هذا الاقتراح، وأن يكون هو أول من يتخلى عن مشكلته لحل مشكلة الشخص المتفق عليه، إلا أننا اتفقنا جميعاً على أننا نطالب فقط بالعدالة.

كان هذا الرجل مظهره يدل على أنه في درجة من التعقل والثبات، كان يتحدث بثقة وهو ما كنا نفتقده جميعاً، كان ذكياً دائم الابتسام، كان يبالغ في إصدار الأحكام على الناس وعلى كل شيء، وكان وسط هذا الاضطراب السائد يحاول أن يجعل من نفسه مخلصاً، وقد نسخر من محاولته تلك، ولكن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بأننا كنا نأمل في أن يكون كذلك، وهذا ما كان يمنعننا من التسرع في الحكم على هذا الرجل الغريب.

كان هـذا الرجـل يبـدو لأول وهلـة انـه يتسـم بهيئة تشـبه هيئة من يحظى بسـلطة ما، هاجمني حدس وتخمين مباغت دفق عندي شـبهة يقين، إلا أنه كان علي أن أجد مبرراً للشـك الذي سـيطر على نفسـي، فوقـع الحديـث علـي كان مختلفـاً عن وقعه على الآخرين، كان البعض موزعاً بين القلق واليقين، أما أنا فكنت على درجة ثابتة من الشك. كان لدي انطباعا بأني لا أرى سـوى ممثلاً يتحدث بفظاظة مدعية، وكنت أشعر أنه لا يوجد وجه آخر أكثر إنسانية تحت هذا القناع.

بالنسـبة إلي كان من الأفضل أن نفكر لو أن الرجل قد قدم هذا الاقتراح عن نية سليمة، فربما كانت المسئولية الأخلاقية هي الراجحة في تلك اللحظة، ولكن من أين نأتي بالثقة التي تدفع كل منا إلى إعطائه كل الطرق والأفكار التي استخدمها للخروج من هنا، وكل محاولات الخـروج مـن هنـا، وكل الأماكـن التـي اكتشـفها، ربما لو اطلع هو على كل تلـك المحـاولات ودرسـها جيـداً، لتوصـل هو إلـى الطريق، وربما نصحو ذات يوم لنجد أنه لم يعد موجوداً هنا. كيف نضمن وجود تلك العواطف النبيلة الألقة في مثل هذا الجو الذي نعيشـه، وكيف نضمن أننا سوف نتمكن من إيجاد طريقة لخروجنا جميعاً، حتى أنه وبالرغم من قلقنا إلا أن الأمل لدينا ضعيف في أن يتمكن هو من الخروج حتى وإن اطلع على محاولاتنا.

نحن نجهل حقيقة هذا الرجل، كما نجهل الكثير من الأمور هنا، مـاذا لـو كان هـذا الرجـل ينتمـي إلـى مـن يرغبـون في بقاءنـا هنا، وأنه يسـعى للإلمـام بـكل محاولاتنـا للقضـاء على الجـاد منها والحول دون وصول من اقترب، وأن مهمته الوحيدة تنحصر في إغلاق الطريق أمام أي صدفـة ربمـا تقودنـا إلـى الحقيقـة، وأنه يتعمد أن يضلل خططنا التي اتخذناها للمقاومة.

الضمير الأخلاقي موجود لدينا، لا نستطيع أن ننكره، لطالما كان موجـوداً، وهـو موجـود الآن أيضـاً، إلا أن الأرواح أصبحـت مشوشـة،

وصـار هنـاك كـم مـن المخـاوف التي تتفوق على تلـك المخاوف التي تواجهنا عند اقتراف ذنب ما، ونحن وقد صرنا نرى عقوبات تخلو من الرحمة والشفقة، تنالنا دون ارتكاب الذنوب، فبتنا لا نخشى ارتكابها، لم يعد الضمير ينهش فينا بقوة، في هذا الجوفار الشنيع الغادر.

وهكذا تم تشـكيل لجنة على جناح السـرعة، أنيطت بها مسـئولية تنفيذ أفكار هذا الشخص، تم توزيع المهمات بين طاقم اللجنة، وتعهد كل منهم بتنفيذ ما طلب منه، وكان الكل يعمل عدا صاحب الفكرة، كانوا ثماني عشـر فرداً، يتنقلون في حركة دءوبة متواصلة لجمع المعلومات المطلوبة، وتم اقتراف تجاوزات ومخالفات وممارسـات مشـينة، وكان البحث يشمل الأحياء والأموات، تم تفتيش الدور الخاصة بمن رحلوا بحثاً عن أية أوراق أو ملاحظات مدونة، أو رسوم، وكان عمل اللجنة سـريعاً وفعـالاً، فقبـل حلـول الليـل، جـرى تجميـع كمـاً لا بأس به من المعلومات المطلوبة.

وذهبـت أنـا أشـدد علـى الجميـع علـى أننـا نحتاج إلـى الحصافة والحذر البالغ في موقفنا إزاء هذا الرجل، كي لا نخسـر آخر أمل لنا. لكني لم أستطع أن أحمل هؤلاء الناس على تصديق زيف هذا الرجل، لكني كنت أفكر أنه لا يجب أن نترك مثل هذا المأجور أن يفقدنا كل أمل، وأن يفقدنا صوابنا أيضاً، ويوقف قدرتنا على التفكير ومحاولاتنا، ربما كانت حقيقة أننا نواجه أشياء لا نفهمها لا تعطينا الإحساس بالثقة، كل مـا يريـده هـذا الرجـل هـو أن يعـود كل منا إلـى حجرته، وأن يبقى هناك في هدوء، هذا الرجل ليس حراً، هو فقط يتظاهر بأنه كذلك، هو مثلنا تماماً ليس بالحر، علينا ألا ننسى ذلك.

العفن

يصعـد إلـى الأعناق، نتمرغ فيه، نتجرعه تجرعًا، نخشى أن يبتلعنا كل هذا العفن..

خواء خاوي...

المشـكل لـم يحـل والقضيـة لـم تحسـم بعـد، فالسـؤال خلافـي والإجابات غير قاطعة، وما يتم تداوله في الوقت الحالي يختلف عما كان يتردد في العام الفائت، وما كان شـائعاً في العام الفائت، لم يكن ليلاقي قبولاً في الأعوام المنصرمة، وحتى ما نتداوله بيننا الآن لا يتفق مع ما نعيشه من تفاصيل.

لا حقيقـة ثابتـة فـي تاريـخ هـذا المـكان، ونحن ما بين التحولات والتبدلات في فقد مستديم، والجوفار لا يفصح عن أسراره القديمة، ولا يكف عن إشاراته المضللة التي تضنينا وتكدنا في ظلام شاسع ومدى بلا حد، لكم حاولنا، لكن لا نبذل جهداً إلا ونلاقي فشلاً، نجهد الذهن لكـن عبثـاً، نخضـع، فنحـن لـم نأت من بلاد الرفض، تتمزق السـاعات وتهـرب الأعمـار، لـم نعـد نحلم بمعجزة الخـروج، باتت المعجزة هي أن نستمر في العيش، أن نحافظ على الحياة من يوم لآخر حتى نتمكن من الوصول ليوم ربما يكون فيه الخروج.

في هذا المكان المبهم ذو الفضاءات التي يؤدي كل منها للآخر، لم نمسـك سـوى بخيوط واهية لا تكفي للكشـف والفهم، ولا تعين

علـى التوصـل إلـى شـيء، لـم نتمكـن من الوقوف علـى المصادر ولم نتمكن من الرؤية، لم نفهم كنهه ولم ندرك سره، نخوض في مسافاته المنفصلة المتصلة، ولا نمسك بضفافه، نبحث عن منفذ عبر تخوم لا نصل إليها.

الحياة هنا تمضي على وتيرة واحدة دائماً، محاولات مستمرة لا تؤدي إلى شيء، فشل مستمر وإحباط، والكل لا يعرف شيئاً، يوماً بعد يوم يتحول المكان إلى سجن عفن، يسعى كل منا إلى أن يفتح منفذاً وأن يشق لنفسه طريقاً خفياً كي ينجو من هذا الظلام اللامحدود، نفشل فتنهشنا أقسى الآلام ويبكي الأمل مقهوراً، وعلى الرغم من كل ما يجري إلا أننا لا نزال نحاول أن نعتصم بالحكمة وأن نكون أكثر هدوءاً، نسير بخطوات مكتومة خشية أن ينفد الصبر فننقلب وحوشاً ضارية.

ما من شيء يقيني هنا، الحكايات كثيرة ومتعددة، حكايات تكفي الجميع، حتى يجد كل منا ما يعتقده ويصدقه، حكايات تسعى كل منها إلى تقديم إجابة للسـؤال، تفسـيرات شـتى، منها ما يبدو عقلانياً، ومنها ما يبدو متسـقاً بعض الشـيء مع ما نعايشـه من وقائع ملموسـة، ومنها حكايات تبلغ حد الخبل والهذيان، إلا أنه لا حقيقة مؤكدة في أي من هذه الحكايات حيث لم يخرج أحد منا ولم يصل إلى ديار أخرى ولم يعد كي يقص علينا الحقيقة.

وقد اختلف الناس في تحديد عمر هذا المكان، منهم من يرجع نشأته إلى قرون مضت، ومنهم من يؤمن بأنه بدأ منذ زمن ليس بالطويل وأنه سيفنى في وقت ليس بالبعيد، وهناك من يرى أن هذا المكان قد شـهد أزمنة شـتى تتابعت، لكن من دون أن تترك بقايا أو تودع آثارا، أو ربما كانت آثار الزمن يتم محوها عمداً، كي لا تكون معيناً أو دليلاً في أحد الأيام.

ثمة أنباء عن مخطوطات عتيقة محفوظة بخزانة ما، أوراق صفراء

ذات أغلفة جلدية مهترئة يقال أنها تحوي العديد من الأسرار والعديد من الحقائق، كما أن هناك اعتقاد سائد لدى البعض هنا بوجود خبايا تحت البيوت ومداخل ومخارج سرية.

لكن السؤال لا يتغير، كيف شيد هذا المكان؟ يروى أن الجامع الكبير هو أقدم المنشآت هنا، وأنه بني على أنقاض كنيسة، وأن هذا هو السر في وجود هذا التل المرتفع وسط تلك الأرض المنبسطة، فيرجع ارتفاع تلك البقعة حسب الحكاية المتداولة إلى الأنقاض التي شملت أنقاض الكنيسة وأنقاض وجثث وممتلكات كل من قتلوا وهدمت بيوتهم، الأمر الذي يجعلنا نخشى من مصير مشابه ربما يكون في يوم من الأيام، أن ندفن يوماً تحت أساسات بناء آخر، ومن الشائع أن المكان محاط بالأرواح الغاضبة، ويروى أن ذلك الحدث كان بداية نشأة جديدة للمكان، ويروى كذلك أن المكان عرف أكثر من نشأة وأكثر من عهد وكان بداية كل من هذه البدايات تتم على خراب شديد وتشييد على أنقاض وخرائب. أما جوهر السؤال عن ماهية هذا المكان؟ فلا إجابة محددة تنتج عن كل المناقشات الكثيرة والمعلومات العلنية والأخرى الخفية، ولم يعرف بعد سر تسمية المكان بهذا الاسم.

بشكل عام كان الشك دائماً ما يخيم على كل من يستمع إلى الحكايات التي تروى هنا، ولم تكن تبعث الطمأنينة في النفوس بقدر ما تبعث القلق، لذا كان من الضروري أن يسعى كل منا لاكتشاف حقيقة ترضيه، وكنا نأسف لذلك كثيراً، وكنا نشعر بضرورة أن يبذل المرء جهداً كبيراً كي يصل إلى حقيقة ما، وكنا في كل يوم نجد أنفسنا أمام صورة محيرة للجوفار.

في تلك المسرحية الهزلية السخيفة والمرعبة في آن، شاخ الممثلون وهم لا يزالون يؤدون نفس الأدوار التي لم تعد تصلح لهم، وهي بالأساس لم تكن يوماً صالحة لهم، أما النص فهو الآخر من الأساس غير صالح للعرض، وعلى الرغم من ذلك فهو يعرض ويتكرر عرضه منذ زمن طويل، ولا أحد يشاهد على الرغم من أن القاعة ممتلئة والمخرج قد أغلق الباب حتى لا يتمكن أحد من الخروج.

افعلها إن كنت تجرؤ!

أن تكون مجبراً – ولا تعرف لذلك سبباً – على أن تظهر احتراماً لمن تكن له في نفسك أعظم احتقار، أن تبتسم في وجه من تود لو طبعت وجهه هذا ببصمة أقذر أحذيتك، أن تكون مجبراً على ألا تبدي لمن ظلمك واستلب حقوقك أنك تشعر بأي ظلم، بل على العكس تبدي له رضاك التام عن معاملته العادلة لك، تشعره برضا لم تشعر أنت به يوماً، أملاً في أن ينظر إليك بنصف عين عادلة إذ لم يجد منك سخطاً، ويمنحك جزءاً ضئيلاً من حقوقك.

نعم حقوقك، التي هي في الأصل حقوقك، حقوقك يعني من حقك، يعني من حقك الحصول عليها، يعني حق، يعني لا تمنح، يعني لا تستجديها، يعني لا تتسولها، يعني لا يتم إذلالك حتى يمنحونك

إياها (هذا إن منحوك شيئاً أصلاً)، يعني وإن منحوك إياها لا يتعطف عليك بها أحد، ويظل يكسر عينك مدى الحياة، وتظل أنت ولمدى الحياة أيضاً مديناً له تسدد ديناً لا ينقضي أبداً، وأنت لا تعرف لماذا صرت مديناً بهذا الشكل، كل ما تعرفه هو أنك يجب أن تسدد وأن تظل تسدد.

أما من لا يمنح الحقوق أبداً، وإنما يأكلها دائماً، فإنه ينظر إليك في كل يوم بعين متبجحة، يقول لك:

ها أنا أمامك، أنا من أظلمك، آكل حقك، أمتص دمك، أتغذى على لحمك وأقرقش عظامك، ها أنا أمامك أنظر في عينيك، هل تجرؤ على النظر في عيني، افعلها إن كنت تجرؤ، هيا افعلها ها أنا أمامك، لن أذهب، لن أخفض عيني، لن أغلقهما، ها هما أمامك مفتوحتان، انظر إليهما، افتح فمك، انطق، قل لي أنني أنا من ظلمك وأكل حقك.

أنا من تنفس هواءك النقي وجعلك تتنفس ما يخرجه من غازات، أنا من تناول حصتك من الطعام وجعلك تتصارع مع أمثالك على لقمة، وحين تحصل على تلك اللقمة ثم يتم سرقتها منك، أخبرك الآن بكل سرور أنا من سرق لقمتك.

أنا من شرب ماءك النظيف وجعلك تشرب من مياه الصرف الصحي التي يزودك بها حمامي الخاص، أنا من أخذ فرصتك في العمل، أنا من استولى على درجتك الجامعية، على أفكارك، أبحاثك، أنا من اغتصب كل فتاة أحببتها يوماً، أنا من حولتها إلى عاهرة رغماً عن أنفها الذي كانت ترفعه في يوم من الأيام.

أنا من فعل بك كل هذا، وها أنا أمامك الآن وأمامك في كل وقت وأمامك دائماً وأمامك إلى الأبد، فانظر في عيني لو كنت تجرؤ، انظر إلي لمرة واحدة في حياتك نظرة تمتلئ بمشاعر الحقد التي تخبئها بداخلك ولا تجرؤ على إظهارها، انظر نحوي لمرة واحدة في حياتك

نظرة احتقار تظهر قدراً ضئيلاً من الاحتقار العظيم الذي يملؤك تجاهي، ها أنا أمامك، افعلها إن كنت تجرؤ.

أمسك برأسي واضرب بها أقسى جدارا، هشمها تماماً، أما حلمت كثيراً بهذا، أليس هذا هو حلمك المفضل الذي لطالما حلمت به نائماً، أليس هذا هو المشهد الذي كنت تلوذ به في لحظاتك الصعبة فتتخيله لمئات المرات المتتالية دون كلل، أليس هذا الخيال هو ما كان يهدئ من نفسك، أما كنت تستمتع بصوت اصطدام الرأس في الجدار، وتستمتع بصوت تكسر العظام، وتفرح حين تغرق يدك بالدم الساخن، أما كنت تنتشي برائحة الدم المتخيلة.

هـا أنـا أمامـك الآن أعـزل تمامـاً، ها هي رأسـي، وها هو الجدار، وهـا أنـت بـكل غضبـك وحقدك، فافعلها إن كنت تجرؤ، حول حلمك إلى حقيقة، اصنع حقيقة ولو لمرة واحدة في حياتك، هيا في لحظات بإمكانك أن تسـتمع إلى صوت اصطدام رأسـي بالجدار، أن تسـتمتع بصوت تكسـر عظام جمجمتي، بإمكانك الآن أن تعرف بشـكل واقعي كيف يكون شعور يدك حين تغرق بالدم الساخن، هيا، لحظات وتنتشي حقيقـة برائحـة الـدم المـراق بشـكل حقيقي، هيـا، افعلها، ها أنا أمامك افعلها إن كنت تجرؤ...

كلاب أخرى

حين تتجول الكلاب في جبن صامت، تفتش عن قوتها بين قمامة الأسياد، تترك لترقد في سلام، أما حين تنظر الكلاب إلى ما يلتهمونه هؤلاء الأسياد، وحين يعلو النباح، تترك لترقد في سلام نهائي وسط بحيرات دمائها...

متى نستأنف الحياة؟!...

هل نخرج حقاً؟!... كنت أتساءل فيما أرقب كل شيء حولي، ولا أقول إذ أراني في كل مرة متحمسة لذلك الخروج، أنني قد قمت بكل ما أشعر أنه يتوجب علي القيام به، فأنا لم أكن قد أنجزت الكثير فيما يخص بعض الأماكن، وبعض الأماكن كنت قد توقفت عن الذهاب إليها إما بدافع الخوف أو بدافع اليأس، وبقي علي الكثير لأفعله بخصوص أماكن لم أكتشفها بعد، وكنت في أحيان كثيرة أفكر بأنه لن يفيد في شيء أن أكون أكثر حماساً وأكثر اجتهاداً، فما يبدو لي أن الأمر بات نهائياً ولن يتغير، وأنه من الحمق أن أظن بأنه لعلي أكون أنا الوحيدة التي يمكنها أن تبحث وأن تصل، وأحياناً كان يبلغ بي الأمل الأحمق ما يجعلني أتصرف وكأن الباب قد ينفتح فجأة، وفي أحيان أخرى كنت أشعر أنني بحاجة لعمر آخر كي أحرق تلك الأسوار التي تناطح السماء وكي أتمكن من ملامسة السر.

هنا المكان الأفضل للانتظار، وقفت وسط كل هؤلاء الناس فيما

أنا منفصلة عنهم، كانوا مثلي وكنت مثلهم، جميعاً ننتظر، المكان معبأ بالناس، منهم من يبحثون، ومنهم من يكمنون وراء أبواب بيوتهم، ومنهم بشر يسيرون فرادى غارقين في ذواتهم المعذبة المنهكة، كنا جميعاً نواجه تيار الهزائم الهادر الذي يجتاحنا، وفي كل مرة كان يجري إقناعنا بأننا لا نقوى على التحكم في أي شيء، وكانت تلك قاعدة قاسية، وكنا نتساءل، لماذا نحن؟!... وإلى أي مدى يستطيع الإنسان أن يتحمل في هذا المكان؟!... هذا المكان الذي تقودنا خطوطه الوهمية كي تبقى هويته غامضة، وكي نبقى نحن في هذا الفراغ الأعمى.

أفكر في الحياة التي يمكن أن يطلق عليها حياة فعلاً، لكني في الواقع تعبت جداً كي أبحث عن التعريف المناسب لتلك الحياة، وغني عن القول أنه ليس لنا خيار في أن نعيش حياة كهذه التي لا يمكن أن تسمى بحياة، حياة نستعيذ بالله من الحسرة الحارقة للقلوب حين نتذكر ما كان، وحين نفكر فيما هو كائن نستجير بالله ونطلب غفرانه، أما حين نفكر في ما سوف يكون لا نطلب إلا اللطف فيه، يبتلعنا الجوفار، لا يسمح لنا بأن نتوازن من صدماته، ولا يتيح لنا الوقت للتفكير، نتجرع الحسرة وتسيل المرارة فوق الشفاه ويطل الألم من الأعين، نحصد مرارة الخيبة، أيدي تقبض على التراب وأقدام مهشمة، نتيه في مكان غريب لا نجد لنا فيه مستقراً ولا متعة ولا عملاً، هذا المكان الثقيل الهامد.

ما أصعب وصف هذا المكان الموحش القاسي، هذا المكان الذي هو مبدأ ومنبع لكل شقاء، وها نحن هنا تائهون قادمون وغادون، بين عام يمضي وعام يهب، يعرونا الهم، يداهمنا فيض عذاب، يؤرقنا السؤال، متى سنتمكن من أن نكون كما ينبغي لنا أن نكون؟ ماذا إذا كان كل ما يقال عن الجوفار صحيحاً وماذا إن صدقناه، وماذا إذا كان كل نرويه عن الجوفار وكل ما ندونه على أوراقنا كان اختراعات من خيالنا؟ كيف نشعر بالحرية ونحن في قبضة هذا الكابوس؟ ليس من طريق

أمامنـا للخـروج، سـنموت وندفـن حامليـن معنا الكثيـر من الألـم الذي سيصاحبنا في الرحلة، أيها المجهول نبحث فيك عن ملاذ.

أمـا أنـا فلازلـت أشـعر بذلـك النوع من الألم الذي يملأ جسـمي دفعة واحدة حين أفكر بأنني سـوف أبقى هنا، أشـعر بالألـم ذاك يحط فـي يغمرنـي ويفيـض عنـي، حاولـت أن أقيم علاقة مع الظلمة، حاولت أن أعتـاد عنـاء الصبـر، حاولـت أن أتوسـد أرض هـذا المكان، حاولت ألا أبتغـي شـيئاً، ألا أتـوق إلـى شـيء، حاولـت أن أمتلـك القـدرة على تحمـل كل هـذا القلـق، حاولـت ألا يصيـب الذبـول أملـي، حاولت ألا أقول وداعاً أيها الأمل.

بوابة الخروج صارت في نظر الكثيرين هنا وهماً، إلا إنني آمنت بوجودها، ربما لم يكن قد أتيح لهم بعد أن يقتربوا منها، وكنت أظن أنني من تقف في المكان الأقرب إلى البوابة، وكنت أرى نفسي أضع المفتاح في الثقب وأفتح الباب وأرى الباب وهو ينفتح وأقدامي تخطو خارجه، كل هذا في رؤية كانت تطوف بمخيلتي فقط، ألجأ إليها حين أستمع إلى الصرخات اليائسة الصادرة عن النفوس المعذبة التي تصرخ كل منها طالبة الخروج، أن تنطلق إلى ذلك المدى.

إلا إنني لا زلت أؤمن بوجودها، أشعر وكأنها موجودة منذ زمن موغل في القدم في مكان أزلي، وكل ما في الأمر أنني ضائعة هنا غير قـادرة علـى الوصـول إلـى هـذا المكان، هذا كان تقديري المتفائل على الرغـم مـن إخفاقـي التـام، وعلـى الرغم من أننـي كلما توغلت في هذا المكان كلما صدمتني وحشـيته، فلا أنكر خوفي الشـديد مما يمكن أن يحدث لي في هذا المكان.

كنت أعرف أن كل خطوة أخطوها على طرقات هذا المكان ربما تكـون الأخيـرة، وأعـرف جيـداً أن الجوفـار لا يـدع إنسـاناً يمر، إما أن يعوقه وإما أن يقتله، وأنه يستطيع في النهاية أن يفعل بنا ما يشاء، وأنه

هناك من يكيلون لنا الضربات كلما اقتربنا من اكتشاف شيئاً ما، وأنهم يضعون نعالهم القذرة فوق رؤوسنا، وأننا نحيا مع سارقين وسفاحين وقتلة، يدفعوننا إلى الانحناء يرغبون في أن يبقى الجوفار في وضعه الراهن، يرغبون في ألا يغسل هذا العفن، ألا يغسل هذا العار، وحين أفكر فيهم سرعان ما يملأني ذلك باشمئزاز وغثيان لا طاقة لي على كبحهما، لن أغفر لهم، وسأدعو لهم أبداً بجحيم جهنم الأبدي كمستقر أخير بعد حياة آثمة، هؤلاء الذين ينتفعون بكل هذا الضرر ومنه.

لا أعرف متى سأنتهي من هذا المكان، بدا لي دائماً أن النهاية بعيدة، بعيدة جداً، ربما تمتد إلى ما هو أبعد من موتي، حيث أنني سأدفن في أرض هذا المكان، ويا لها من مغامرة، إذ ربما أعود للحياة مرة أخرى، تنبعث روحي في فتاة ستعيش هنا، ستسير في نفس الطرقات التي أقطعها، ستعيش في داري، ستواجه ما أواجهه، ستعاني ما أعانيه.

نريد عدالة أقل ظلماً

من يروي لنا التاريخ؟.. كل التاريخ...

أعتبر أن من المفيد أن نعرف تاريخ هذا المكان، دائماً ما نسمع أن التاريخ يكرر نفسه، ربما كان ذلك صحيحاً، وربما كان التاريخ نفسه كاذباً، دونه من كان يهدف لترسيخ الهزيمة في نفوسنا، وربما قالوا بأن التاريخ يكرر نفسه كي لا ننتظر سوى الهزيمة الآتية مع دورات الزمن المقبلة.

لدي كم من الملاحظات المتراكمة غير المنقحة، وهي تختلف وتتضارب في محتواها وتواريخها ومصادرها، وأنا أجهل الحقيقة، وأجهل كيف أرتب أفكاري وسط هذه الأخبار المبلبلة وغير الأكيدة، نويت أن أعيد قراءة كل هذه الأوراق وأعيد كتابتها أيضاً، وأن أضع ملاحظاتي المرتبطة بمشاهداتي وبمنطقي الخاص، بدأت بتأن شديد بينما كانت المعلومات تتدفق أمامي بهذيان ودون تنسيق، تمنيت لو كان كل شيء مختلفاً، وتمنيت لو أنني لم أكن بحاجة لبذل مثل هذا الجهد الذي لا أدري ماذا ستكون نتيجته.

كنت أجبر نفسي على التركيز، ربما كانت تلك الأوراق المبعثرة أمامي هي أملي الأخير في التوصل إلى شيء، كنت أردد هذا بين اللحظة والأخرى كي أقاوم رغبة في نفسي بأن أمزق تلك الأوراق، والقضاء

على ذلك الهاجس الذي كان يوحي إلى بأنني إن مزقتها سأصير حرة، إن القيمة التي تنطوي عليها هذه الأوراق هي أنها مجرد معلومات، مجرد حكايات، تحمل احتمالاً ضعيفاً في أن أتوصل من خلالها إلى شيء.

منذ أن وصلت إلى هنا وحياتي تجري مثل يوم وحيد طويل وممل، ولن ينتهي هذا اليوم إلا بالخروج من هنا، كنت أعمل على الأوراق التي أمامي، ممكسة بمصباح الجيب الصغير كي أتمكن من الرؤية، حيث أن الظلام كان ما يزال مطبقاً، وكنت أسمع صوتا غامضا يطفو فوق المكان، على مدى سنوات كانت التأملات والملاحظات تتراكم، وها هي أمامي الآن، كنت أجهل الكثير منها وأنا أطالعها أثناء ترتيب الأوراق، حيث أن منها ما يعود إلى سنوات بعيدة مضت، كما أن هناك أوراق تنفي الأخرى، وكل فكرة تنفي الأخرى أيضاً، كنت أتطلع إلى الرسوم والخرائط، تلك الهندسة الفوضوية للمكان التي لم تحدده بعد كلياً، خطوط غير مرئية تؤطر ما ليس محدداً.

في كل مرة أشعر أنه يتوجب علي البدء من جديد وأنه علي أيضاً أن أنظر بإمعان إلى عالم هذا المكان، وفكرت أن مصدر الغلط هو أنني أسير على غير هدى، وأن هذا سوف يقودني إلى الأسوأ كانت بعض الملاحظات تتسم بالغرابة وكان بعضها لا يقرأ إلا بصعوبة، كانت ملاحظات مشتتة تقفز من موضوع إلى آخر، وكان بعضها بعيداً عن الموضوعية، ملاحظات شخصية وفقرات طويلة أشبه بتقارير مفصلة عن الجوفار، كان لا يزال أمامي من العمل الشيء الكثير، لم أكن قد فكرت قط أنه يمكن أن أكون ولكل هذا الوقت مخطئة في كل أفكاري، وأنه علي أن أعيد النظر فيها، بدأ لدي خوف مصحوب بتفكير عميق.

كنت أشعر أن كل شيء يقترب من نهايته، وأنه قد آن الأوان كي أخوض وحدي مواجهة ستكون عاقبتها حاسمة، وأنني سوف أخط بيدي آخر الأحداث، كنت طيلة العام السابق قد تمكنت من الاتصال

بعـدد كبيـر مـن النـاس هنـا، روى كل منهـم حكايتـه لـي، تعرفت على مشـاعرهم وكل مـا واجهـوه وعانـوه هنـا، وكنت مع الوقت أفقد الكثير من تحفظي، كنت أروي كل ما أشـاء وألفت الانتباه إلى كل ما أرى، كنت أنسب التهم دون خوف، أجاهر بكل ما يعتمل في رأسي وما تشير إليـه الدلائـل، أعـرض أفـكاري بكل تلقائية، ولم يكن هناك من يختلف معي، الكل كان يرى مثلي وحتى إن لم يكن يرى فإنه يصدق، كنا قد اجتمعنا على حقائق نشترك فيها جميعاً، وأصبحنا ندرك حجم الجرائم التي ترتكب في حقنا، كنا جميعاً نقف في صف الضحية إلا إننا وفي الوقت نفسـه كنا شـيئاً فشـيئاً نسـتجمع قوة نستشـعرها، وكان لزاماً علينا أن ننتظر، كي يكون في وسعنا القيام بأفعال الانتقام.

اسـتعانتي بالآخريـن هنـا سـاعدتني علـى فهـم الكثير، وكنا سـوياً وبقدر الإمكان نكتشـف شـيئاً فشـيئاً ما كنا نحسـه غامضاً، وكنا نبذل فـي ذلـك مجهـوداً عقليـاً كبيـراً، امتزجت أحاسيسـنا وأفكارنا في حين لم نكن نتقاسم من قبل سوى الألم، لم نعد غارقين في الوحدة، ولم يعد الفرد منا يخجل من قوله بأنه يحلم بالعدل، وأن يتكلم عنه، وأن الجريمة الحقيقية الوحيدة هي عدم إقامة العدل.

كنـا لا نـزال نبحـث عـن العلامـات الظاهـرة أو الخفيـة للجوفار، وعلـى الآثـار التـي تـدل علـى تاريخه، وكان الجميع يتكلم عن الخطر، وعن الخوف وعن الأماكن التي يزداد بها الضرر، كان لا يزال بنا ذلك الإحساس المشترك كلما تبادلنا النظرات، الإحساس بالعجز وحقيقة أننا لا نـزال مكبليـن بأصفـاد العجـز والخـوف، إلا أننـا كنـا كلما نظرنا إلى الأمـور مـن قـرب أمكننـا أن نلاحظ حدوث بعض التمزق في الحجاب الكثيف الذي يحجب الرؤية.

لا شيء... لا شيء... لا شيء

لا نغادر

في الأشهر المنصرمة، بقدر ما قوت فينا الرغبة في الخلاص، بقدر ما قل الأمل وتعودنا على مر الأيام ألا نعول عليه كثيراً، أما عما يمكن أن يكون هناك من معنى لذلك الجوفار، فلم نكن نعرف عنه شيئاً، لم يكن من المهم أن يكون له معنى أو لا يكون، كل ما يهم هو الخروج منه.

نخفي وراء مظهرنا الهادئ أنواعاً من الغضب والغل أكثر عنفاً من العنف الذي يمارس ضدنا، يبدو علينا أننا نسير في استسلام، وحقيقة الأمر أن الألم كان يتضاعف قوة واتساعاً ويتردد صداه في النفوس، وأننا كنا في حالة إحباط نبحث عن الحركة التي نفتقدها، كان لدينا توق واحد يواجه خيبة أمل واحدة، وكانت الحرقة الدائمة نحو الخروج لا تزال تعذبنا.

ومع ذلك لم يكن للناس سوى حديث واحد ينتج عن أمل في أعماق القلوب ورجاء ظاهر دون أن يعلن عنه أحد، كان الجميع متفقون على أن الأمور لن تحل دفعة واحدة، وكان من شأن هذا الاقتناع أن يعطينا جرعة من الصبر، وأنه مهما تحسنت الأحوال فلن يكون الخلاص اليوم ولا في الغد.

كنا نلاقي الكبوة بعد الكبوة، وتنزف قوانا، كانت أسلحتنا مغلولة، ومهما يكن من شيء فقد أخذت الآمال تتراجع على طول الخط، أما الإشارات التي كانت تثير في أول الأمر أملاً خفياً في النفوس فقد انتهت بأن أكدت في أذهاننا اعتقاداً بأن الانتصار صار وهماً بعيداً وليس حقيقيا، كنا قد عانينا وقتاً طويلاً من الحبس والانهيار، ما أشعل فينا عدم الصبر وانتزع السيطرة على النفس.

تلك الحياة التي عودنا عليها الجوفار كانت تزرع في نفوسنا شكاً عميقاً، وكان الذعر يستولي علينا حين نفكر أننا قد نموت دون أن نعرف خروجاً من هذا السجن والنفي، وكان ذلك ما يدفعنا إلى أن نندفع كالمجانين في بعض الأوقات، صبرنا سنوات طويلة وقاومنا لسنوات أطول، كنا جميعاً نعيش بلا مستقبل من انتظار إلى انتظار طويل، نحلم بلحظة سلام خاطفة نفوز بها وسط رائحة الموت وقلة المعلومات، ألغاز لا تحل، أماكن مجهولة، خوف وعجز تام، استياء يعم الجميع، كان كل ذلك شديد الوطأة على نفوس الناس.

وقد ظهرت بعض علامات التحول المفاجئة، حيث حدث انخفاض محسوس في عدد القتلى سرعان ما تحول إلى اختفاء لتلك الظاهرة تماماً، وكان هذا ما لا يمكن تفسيره، ذلك أن المحاولات كانت مستمرة كما هي، واستمرت محاولات البحث عن الأبواب واختراق الحدود، بعضنا استقبل هذا كأمل جديد وبعضنا استقبله بخوف، وأننا قد صرنا في مرحلة أبعد ما تكون عن التحسن، هذا معناه أن محاولاتنا لم تعد تزعج أحداً وأننا قد استنفذنا كل المحاولات المجدية.

هذا على كل حال ما كان يبدو جلياً أمام عيني، كنت ألاحظ خلال الشهور الأخيرة درجات متأخرة من اليأس على وجوه الناس، تعبر أعينهم عما كانت تنطوي عليه نفوسهم من عذاب منذ دخلوا إلى هنا وأغلقت الأبواب، كانوا يوماً بعد يوم يفقدون درجة ما من بشريتهم.

كان الجميع هنا يتساوون في عجزهم عن الخروج، مساواة حققها الجوفـار، كان الـكل يتألـم لأنـه غيـر قادر علـى أن يلحق بالحياة، كانوا يذوقون العذاب معاً، يعانون الفراغ العسير، وكانت الحياة التي اختزنوها في أنفسهم تتسرب يوماً بعد يوم، هؤلاء الذين لم يكونوا يتمنون سوى الخـروج ولـم ينالـوا مـا تمنـوا، يمكننا أن نقـول باختصار أن الناس هنا أدركهم السـأم، بذل كل منهم جهده وعمل كثيراً، وها هو الآن يسـقط فريسة السأم الطويل.

دخلت إلى داري وأنا أتساءل عما إذا كنت سأصل يوماً إلى النتيجة التي أنتظرها، كانت الأيام تزداد طولاً وقسوة، وكان توقعي لفشل جديد يزيد من متاعبي، لم يعد في مقدوري أن أشد إرادتي وأن أكافح وسط مظاهـر العـذاب التـي تحيـط بالناس من حولي، كنت أرقد في فراشـي، يتعلق بصري بزجاج النافذة، أحلم بأن أبدأ من جديد عندما ينتهي كل هذا، عندما تفتح هذه الأبواب، تلك الأبواب التي أتمنى أن تكون على وشـك الفتح، أتشـبث بالحلم إذ أجد بي رغبة إلى الموت ورغبة في التوقـف عـن المقاومـة، فـأردد يجـب أن أعيش، ينبغي أن أقاوم بعد أن عانيت سنوات طويلة من الفشل المتواصل.

و كأن الطبيعـة قد ختمــت على أفو اهنا فلا نتكلم، و صمت آذانهم فلا يسمعو ن.

درس واحد تعلمناه: لسنا أحراراً

كانت حقيقة المشكلة أنني لم أكن أعرف من أين أبدأ، ولم أكن أعرف إلى أين يجب أن أنتهي، شوارع كثيرة عبرتها مئات المرات، وفي كل مرة تقابلني الحيرة نفسها، وفي كل مرة كان ينبغي أن أنتظر وأن أبدأ من جديد، وحين أبدأ من جديد تعود الحيرة نفسها، هل أسير في اتجاه صحيح أم أسير في اتجاه مضاد لمقصدي ولما أبتغيه من سعيي.

ومع أنني فيما كنت أتقدم باتجاه نتائج مرجوة، كنت أحس بأنني لن أنجح في شيء، لن أصل، وحتى إن وصلت فلن يحصل شيء ولن أهتدي إلى شـيء، هكذا كان هذا المكان، لا يريد أن يفهمنا شـيئاً، أو يبلغنا شيئاً، فقط يجعلنا ننتظر، وأنا لم أستطع يوماً أن أغير شيئاً وكنت أردد أن الأوقات لا تكون دائماً على منوال واحد، وأنه ربما جاء وقت أتمكن فيه من أن أمسك بالخيط وأفك لغز الخروج العصي.

ذات يوم كنت قد وصلت إلى ثلاثة شوارع آمنت لفترة أنها الأهم هنا بل أنها سـتوصلني إلى الباب، وكنت أفكر أنه يجب أن أركز كل بحثي وسعيي في تلك الشوارع الثلاث، وكنت أجهد ذهني في البحث عما يؤكد ما أصابني من يقين تلبسني، وفي مثل هذه الظروف كان كل

شيء يضطرني إلى التفكير بسرعة، علماً مني بأن كل شيء قابل للتغير هنا، وأنني أيضاً إذا اقتربت من الوصول فأنا في خطر كامل.

ظلت تلك الفكرة الخاصة بالشوارع الثلاثة مسيطرة على تفكيري، وظل صوتاً يهتف بي أنني لا أحتاج إلى أكثر من اكتشافها ومن ثم سوف ينكشف كل شيء. ربما كان هذا الأمل أحد حلولي البائسة التي لا تفسر شيئاً، إلا أنني قد تأكدت من صحة حدسي فيما بعد حين وجدتني ممنوعة من الوصول إلى أي من تلك الشوارع، ولم أعد بحاجة للحذر بعد ذلك، أنا التي ظننت أنني قد أصبحت قريبة وكنت أنتظر كافة الأخطار.

وذات يوم هبطت شارعاً واسعاً شبه مألوف، إلا إنني اكتشفت أنني لم أكن قد وضعت فيه قدمي من قبل، أو ربما حدث ذلك ثم ضاع من ذهني، فكرت باحثة في ذاكرتي عن شارع يشبهه مررت به يوماً فلم أجد، في هذا الشارع وفي طرفه البعيد بالتحديد كانت تجثم بناية غامضة، قررت أن أدخلها، مضيت ثم توقفت في منتصف الطريق، ثم استدرت ورجعت خوفاً، إذ ذكرني هذا الشارع بالطريق الذي يوصل إلى ذلك البحر المشئوم، سرت دون إبطاء خشية أن يؤدي بي هذا الشارع إلى هناك مرة ثانية، أعود خائبة إلى داري، أنام، أحلم، أرى نفسي وأنا أقف أمام الباب المفتوح، فرحة بما أراه، أتوق للخروج، أتلهف، أحاول أن أقترب، أهفو نحوه بكل جزيئاتي، إلا إنني لا أستطيع المشي، أعجز عن أن أحرك قدماً واحدة.

نسير مرفوعي الرأس

على الرغم من كل ما جرى لنا، إلا أننا لازلنا نرفع رؤوسنا عالياً، إلا أننا نرفعها فقط حتى لا ننغمس كلية في الوحل الذي طال أجسادنا حتى وصل إلى الأعناق.

ما أثمن النهار الذي ينتهي...

في الأشهر الأخيرة، تضغط الأحداث وأنا لم أعد أتمتع بالصبر قط ولن أبدل حريتي، لقد فقدت صبري بعد أن فقدتكما، وإنه لفقدان كبير. لم يعد لدي ما يمكن أن أفقده، حرارة الحياة تنسحب مني ببطء، الشمس لم تشرق ولا وجود للنور حتى الآن، وكل شيء يرقد تحت ظلام عنيف، أما غضبي فلم يعد بالإمكان كبحه. لا توجد نفس تتسع لكل هذا الكرب، ولا يستطيع أن يفهم ذلك إلا من كان هنا الآن، بطء الوقت واختلاط الليل والنهار، أفكار تتشابك حول رأسي دون انقطاع، مخاوف لا أستطيع تحاشيها، ينطفئ الأمل واحداً إثر الآخر.

أتساءل متى نستطيع أن نكون مع الجوفار على وئام، إذ من الخير أن يكون المرء على وفاق مع كل مكان يحل فيه، فأنا نفسي اقتنعت باستحالة الخروج، ما عدت أفكر في الأسئلة التي كنت أطرحها في البداية، لم تحل أي منها، فأخذت أفكر بأن تلك الأسئلة كبيرة، أكبر من عقلي ومن بصيرتي.

على الرغم من أن هذا الجوفار الغامض لازال يثير لدينا الرغبة في

الكشف والتطلع، ولازالت الأسئلة تلاحقني، فألبث أتساءل مرة أخرى، لمـاذا تحـدث كل هـذه الأمـور، لـم نحن عاجزون إلى هذا الحد، نحن المحبون للنور، نرقد بين طيات الظلام بينما نهفو إلى الخروج.

نعيش حياة كئيبة راكدة لا معنى لها، ترهقنا العطالة ولم يكن هناك مـن عمـل، غيـر مسـموح هنـا بالعمـل، وهذا ما لم يلائمنـي أبداً، وهذا يجعلنـا أضعـف مـن أوراق أزهـار صغيرة تتطاير بمجرد أن تنفخ عليها، غيـر أننـا مضطـرون، حـاول الكثيـر عمـل أي شـيء، وكانت محاولات ضائعة، حيث أنه يجب علينا الانصياع لتلك العزلة التي لا مخرج منها، نتفرغ كلياً إلى الجوفار فلا يقاسمه الاهتمام أي شيء آخر، تشعر أنك عاجـز، غيـر مسـتخدم، وأن الكـون ليـس بحاجة إليك، كل هذه الأمور كانت عوامل تتحكم بنا وتشـعرنا بالعجز، وكان الفرد منا قد أدرك أنه قد كتب عليه ألا يبرح الجوفار قط.

أتبيـن الآن أن كل شـيء هنـا يعـود إلـى الحريـة، والحريـة هي ما سلبت منا، ومن الآن وصاعداً لابد أن نستعيدها أو نخلقها كي نكون قادرين على الخروج، لن نكون أحراراً إلا حين نشـرع بالرفض، حين يقتنـع الفـرد منـا بـأن الرفـض نافع ومسـاعد له، أن ينتظـم وجودنا وأن تعرف الإرادة وضوحاً متزايداً، لكن إلى أين الذهاب إلى الحرية، ونحن مـن ظـلام إلـى ظـلام إلـى ظلام، حاولنا أن نخرج من الليل إلى النهار، من الظلمة إلى النور، من الوهم إلى الحق، لكن أين تبدأ حدود الليل وأين تبدأ حدود النهار، أين تبدأ حدود الظلمة وأين تبدأ حدود النور، أيـن تبـدأ حـدود الوهـم وأين تبـدأ حدود الحق، نعيش في دوامة رهيبة وسوف نكتشف أن زمننا بأكمله لم يكن سوى جزءاً من الليل.

دهمني شـرود، أجلس دون حراك ودون أن أتمكن من تقرير ما يجب علي فعله، هل أستمر في محاولاتي أم لا، صرت في حالة مؤلمة ومخيفة، وهكذا كنت أشعر أن الظلمة التي كانت تغمر الجوفار تغمرنا شيئاً فشيئاً وتحيلنا إلى ضباب، لم تكن عندي القدرة على إيقاف هذه

الوسوسة، هكذا صارت تبدو مغامرة الخروج مجدبة، تبقى غير متحققة غير ممسـوكة، ويبدو أن تحققها الأكمل محظور، وعذابنا كله هو أننا نبحث عبثاً عن مخرج، هذا المطلب البسيط والحق البديهي كان يبدو لنا معجزة مستحيلة.

كانت تواجهني أحياناً علامات مشجعة، وأحياناً تواجهني حالات يأس، وما كانت تتوقف النزاعات أبداً، ولا كنت أتداركها، أيام صعبة، تهجم الحسرة مما لم نحققه، هائمين نظل، لن نفعل سوى أن نمر وكأن لم نكن، خائفين ننشد سنداً، يمارس علينا عنفاً، قلقون هشون، لا شيء يعكس وجودنا في وطن من ضباب ودخان، نتلقى ضربات عمياء، الذل يطوي النفوس، نجن حقداً، نموت انكسارا، يغمرنا الأسى العميق، نجر ورائنا السنين، تلطمنا الحيرة، يأكلنا الفراغ واليأس المرير.

كان أهم شيء عندي هو أن أفهم ما يجري بوضوح، لكن وجودي في مثل هذا المكان يجعلني لا أستطيع التفكير بشكل مكتمل، ما هذا المكان؟ ما سلطته علينا؟ من وضع دستوره وقوانينه؟ بأي حق يقبض هـذا المـكان علينـا بقبضتـه تلـك؟ لمـاذا لا يجرؤ أحـد على عدم تنفيذ القوانين؟ لم لا يسود سوى سلام الذل؟ أو لا يسود سوى قتلنا والفتك بنا؟ لم لا يوجد أمامنا خيار ثالث؟

لـم أعـد أدري هـل سـيكون بمقـدوري مواصلـة الوجـود أم لا، أنهكني السير والتطلع إلى أماكن لم أعرفها ولم تعرفني أبداً، أرتجف أنا الضئيلة، لا أذكر المعالم، لا أذكر الزمان، كنت قد ظننت أنني أصبحت أكثـر صلابـة فـي مواجهـة المفاجآت، إلا أنني اكتشـفت أنني أعيش في وهم كبير، علي ألا آخذ الأمر ببسـاطة، وأن أعترف بأن الأمور السـيئة قد وقعت، وعلي أن أسـتعد للأسـوأ وأن أنتظر الغد المغلف بالتهديد، يؤلمني القلب الذي بات عاجزاً عن امتلاك أي سعادة طارئة من فرط خشيته من الفقدان، أن أعاود عيش تجربة مؤلمة سابقة، أن تتكرر فاجعة مضت...

كان من الصعب أن أخرج من حالة الاضطراب الباحث، أحب عبثاً كل ما هو ضائع بينما أدرك أنه لم يعد لدي سـوى القليل من الوقت لكي أكون، وأدرك في نفس الوقت أن اليقين يتلاشى، فلتعينني يا من لا يطاله الشك أبداً.

نلعن ونسب لأننا قد سلبنا كل وسائل التعبير الأخرى.

عالم العزلة المستديمة

في هذا الجوفار اللانهائي، يتحول كل تناغم إلى تنافر، عبثاً أجعل فكري يؤمن بأن النهار سوف يولد، وأن الحقيقة سوف تنعتق من رقها، أعيش في يأس هادر صاحب حبيسة أسوار جدب هذا المكان الذي لا حد له، هذا الطغيان اللامبالي يهتصرني بقوة على نحو يفضي بي إلى الجنون، لا شـيء ثابت، كل شـيء يتبدل ويتغير، وهذا يصعب الأمور كثيراً ويجعلنا نبدأ عملية البحث من جديد في كل مرة، نسير يوماً في أحد الشـوارع لنجده مغلقاً في اليوم التالي، أو نكتشـف أنه لم يعد له وجـود، أو أنـه ربمـا لـم يكـن موجـوداً من الأصـل، وهكذا كنا في كل يوم جديد نتشتت في جهات شتى، تمحى كل آثار أو علامات نحاول أن نتركهـا فـي المـكان الـذي نعبـر فيه بغية أن نسـتدل عليه مرة أخرى، وهكذا كنا نتوه إلى الأبد.

ثمة من ينفذ إلى صميم تجاربنا وأفكارنا ومحاولاتنا ويعبث بكل مـا نصنعـه، كان كل مـا ننجـزه مهـدداً دائماً، كانت كل الحقائق القديمة تتغير، كان كل شيء يظهر ويختفي في نفس الوقت، كان الأمر صعباً، والخطر محدقاً، كنا نسـعى شـمالاً وجنوباً بقلق سـاري، بينما يتغير كل شيء وتنمحي كل علامة، وينتفي كل تصريح، ويتعذر كل تلميح، وكان

أصعب ما نواجهه هو وجودنا في مكان محدود وأطر غير مسموح لنا بتجاوزهـا، وكان كل مـا يحيطنـا يصنـع فجـوة بيننـا وبيـن العالم، وكان كل ما يصلنا بهذا المكان يضعف ويهن، فتغير الأماكن وزوال المعالم واختفاء العلامات وضياع الإشارات، جعل أكثرنا تماسكاً لم يعد قادراً على المواصلة، ومهما أوتينا من ثقابة البحث، كنا لا نصل إلى شـيء حقيقي، يقيني، ثابت، كنا وسط انقلاب كافة الأشياء، وتبدل الأحوال، كنـا وسـط كل هـذا الاضطـراب، لا نـزال نفتـش ونتطلع وندقق، نبحث في سائر المباني، وسط المقابر، نتطلع صوب السماء، نحاول أن ننفذ إلى باطن الأرض.

منذ فترة سدت الطرق، لم أستطع التوجه إلى الشوارع التي كنت أتوجه إليها من قبل، كنت في البداية أسير في كل الشوارع والطرقات التـي أصـل إليهـا، وكنـت كلمـا اعتقدت أنني أحطـت منطقة ما بمعرفة تامـة، كنـت أكتشـف طريقـاً لـم أكن قد سـلكته مـن قبل، وكانت جميع الطرق التي كنت أسلكها من قبل تنغلق، كنت أترك إشارات دالة على الطـرق التـي أظنهـا مؤديـة، وكان يتعـذر علي الوصول إليها مرة أخرى، كانت تلك البوابة التي لا أراها بالنظر، غير المرئية، تلك البوابة التي لن يبلغها أي إنسان لا تفارق تفكيري، كنت دائماً أشعر أن هناك من يأخذ نتـاج بحثـي وثمـرة كـدي علـى الرغم من عـدم تعاوني مع ذلك الرجل المجهول الذي لازال يجمع كل المحاولات ولم يصل إلى شيء ولم يفعل شيئاً، وكنت أشعر أن ما قمت بتحصيله لابد أن أحفظه مصوناً، ولا يجـب أن أمحـو مـا تغيـر، فمـا تغيـر وانمحـى ربما عاد إلى الظهور ثانية، علي أن أجتهد في إتمام ما بدأته، لأحتمل... لأحتمل...

أسـعى لأمتلك دقة النفاذ كي أصل إلى نقطة سـتكون مسـتودعاً لكافة الحقائق والرموز والعلامات والمعاني، ليس أمامي إلا التماسك والجلد، كنت في تلك المساحة المحددة المسموح لنا بالتحرك بداخلها فقط، أشـعر أن كل خطواتي مرصودة، وأن هناك من يغلق الطرق في

وجهي، لا يجب أن أغمض عيني بعد الآن، لابد أن أسعى لأن تكتمل معرفتـي كـي أصـل إلـى مـا يصعـب إدراكه، كي أفض ما يسـتعصي من أسرار، أسعى إلى بلوغ الحقائق، لابد أن أعرف كي أخرج، لا خروج بدون معرفة، إلا إنني وفي الوقت نفسه يجب أن أتخذ أقصى حذري درءاً لحماقـة الجهـلاء المتحكميـن فـي كل شـيء في هذا المكان، هذا المكان الوعر الذي يصعب التحقق من سائر جوانبه، والنفاذ إلى كافة أغواره.

من يولينا اهتمامه، من يبالي؟

في هـذا المكان الممل المخبول، وسط هذه الحياة التي نعيشها، ما أصعب أن لا يغدو المرء منا متوحشاً أو غريب الأطوار.

الفجر مازال مغلقاً

يحمل الجوفار ألوف أعوامه، يواجهنا بعنف تلك القرون، وأنا لن أزرع جذوري في أديم تلك الأرض كي لا أنطرح شراً، طال مكوثي هنا وطوافـي، أمـا الأوقـات فهـي لا تنفـك تأتي بما لا أتوقعه، الحذر يخيم علـى الجميـع، نـزل علينـا غم عظيم، تؤرقنا افتراضات لم تتجاوز دائرة اللايقين، تبقى بلا حسم، بلا قطع.

المكان كله مفعم بسر ما يزال متوارياً، لغز مبهم تزيفه قوة رعناء، لغز يدعونا دائماً إلى إرتياد المجهول، بينما يغمرنا الخطر والريبة.

لا يعرف أحد الوقت الذي يجب أن يأخذه البحث كي نكشـف عن ملامح هذا المكان الحقيقية، لو ينكشف الستار عن الزمن المندثر، عن هذا المكان الذي يتخذ أشـكالاً عديدة وهيئات مختلفة، لو يدرك أحدنا السر، لو يتمكن إنسان واحد فقط من النفاذ، أن يخرج إلى مكان آخر فنتبعه جميعاً، كي يجد كل منا وطنه الحق.

كنـا نتسـاءل ونجتهـد ونبـذل الطاقـة، نحـاول أن نـدرك ونفهـم ونستوعب ولو قدراً يسيراً من الحقيقة المخفاة، لا يعلم أحد ما تصير إليه الأمور، لا يعلم أحد ماذا سيكون حال الجوفار في الغد، لا أحد

بإمكانه التكهن بشكل لمستقبل هذا المكان، سواء المستقبل القريب أو المستقبل البعيد.

الأمر جلل، يجري التمويه بشكل مستمر، هؤلاء الفجرة، أصحاب السطوة والقدرة الغشومة، الذين يعموننا ويجهلوننا ويغربوننا، من يجعلوننا عابرين باستمرار، لا نعرف الإقامة أبداً، يجعلوننا عابرين في الداخل فقط فلا نعرف العبور الحق.

هؤلاء الذين يبيعوننا بثمن بخس، ويتباهون بما يصنعون بنا، من يصفوننا بالسذج الغفل التائهين في الممرات التي لا تؤدي إلى شيء، بالعاجزين الذين لا نصنع شيئاً، ولا نصل إلى شيء.

من يظنون أن الغشاوة لن تنجلي عنا أبداً، من يجهلون أننا وعلى الرغم من تلك الغشاوة، لم نغمض أعيننا ولم نتوقف عن التحديق، وإن لم نبصر شيئاً.

اللاكيان

لم أستطع أبداً أن أكون كما يريدني هذا المكان أن أكون، ويبدو أنني غير قابلة للتأقلم على الإطلاق - أو أنني أعطي الانطباع بذلك - كنت ألقي بنفسي على العمل والبحث بإرادة محتدمة ورغبة مدهشة في التوصل إلى شيء، وكانت حماستي يقظة إلى أبعد حد، وبدل أن يقودني كل هذا الجهد إلى اليقين، أثار في نفسي الأسئلة والشكوك والإيحاءات والأفكار التي كانت تنتابني بشكل مستمر.

السنوات الأولى هنا كنت قد قضيتها في حالة مستمرة ومتطرفة من الدمار الروحي، وكانت تلك السنوات غير مفهومة بالمرة، بعدها فهمت أنه من المهم أن أدون كل ما أراه بعفوية وعلى الفور ومن ثم دراسته وتحليل تفاصيله، كنت أفرض على نفسي أشد الطرق الصارمة في البحث، ولكم بذلت من الجهد في تلك السنوات، وعلى الرغم من ذلك لم يتغير شيء، وبقي كل شيء لا طعم له، وكان اليوم يمر كاليوم الذي يسبقه في خمول وخواء.

أتحقق من أن الذي كنت أمني به نفسي لم يكن بمقدوري تنفيذه، لطالما أرقتني أشياء هذا المكان، أصابني صدع الزمن، كنت بحاجة إلى حيلة، وكنت قد عقدت العزم على المواصلة، كنت أرغب في أن أرى كل شيء، أن أعرف جميع الأشياء، أن أبصر الأسرار وأكشف عن الخفايا، كنت أظن أنني سأكتشف كل شيء في هذا المكان الملعون،

كان الجوفار يتحول في لحظات إلى مكان موحش همجي، لم أكن أظن أن ذلك ما ستأتي به الأيام، ولا أظن أن الحياة ستكون على ما يرام بينما تسير الأمور على هذا النحو.

تستمر مشاعر القلق التي توقظ الهمة بقدر ما توقظ الخوف، أعيش حياة تجمع بين المغامرة واليأس والرعب والأمل، كنت أخشى الليل والأشباح والآن أتعجب من نفسي وأنا أمضي في الظلام، والجوفار لم يترك لنا أي وهم، لا أحد يعرف الطريق، لا أحد يعرف حقيقة الأمور، أنا لا أعرف، ولو عشت هنا مائة عام، لن أعرف شيئاً، لن يخبرني أحد بشيء، لا يوجد شيء، كنت أردد هذا الاسم الغريب الخفي، الجوفار، كنت أصلي، أصرخ

سحقاً لهذا المكان

يجب أن أشرع في فعل أي شيء، أنا أعرف أنني يجب أن أفعل ذلك، أود أن أعود إلى عالم الضياء، أن أحفل بقسط من الراحة. من الشاق أن يعيش المرء هنا، نعيش رهن هذا المكان مع فقدان الصبر ورفض الانتظار، يمزقنا القلق والخوف من سوء المصير.

أصرخ

أهلوس

أهذي

أصمت

أتمتم

هل سننعم بالحرية إذا خرجنا من هنا؟!... هنا بوسعنا التحرك بحرية ما دمنا في الداخل... أين الغد؟!... لو نقابل الحياة في منتصف الطريق... لن يموت كل شيء... هل ندرك ما هو بعيد المنال؟!... ننتظر ساعة الانتصار... لا نسمح بهوان النفس... ننبعث في الساعات العميقة... لا أطفال في مكان لا يعرف الطفولة... هل نقلع عن السفر؟!... أين الطريق؟!... سلبنا كل شيء في وضح النهار... لا

نبـع، لا مصـب... وطنـي؟!... لننـام... نطلب الرحيـل أو الموت؟!... لا مكان لنا... من أغلق كل هذه الأبواب؟!... متى نعلن وجودنا؟!... هل أخطاؤنا عظيمة لا تغتفر؟!... نوشك أن نسحق... لا للموت ولا للحيـاة مـن يقبـل بهـذا؟!... نسـير علـى فـم الأرض... لـن نعتمد على الزمن... الوطن الحقيقي ليس هنا... هل نجد جواباً للسـؤال؟!... لن أكون من أولئك الذين يلزمون الصمت... كم العدالة غائبة... هنا ينتهي الانتظار... نحتاج للتوازن كي نعبر... الوطن موت... الموت وطن... ملحمـة الغبـار... شـرف... اسـتقلال...حرية... كرامـة... هذا السـلام الزائـف... هـذا العيـش الزائف... لتخلصنا هذه اللحظة... علينا جميعاً أن نلقى حتفنا... كيف نحيي وطناً؟!...

لن يكون ذلك مشهدنا الأخير

مع الزمن تتحول الضغوط الشديدة هنا إلى حال شبه مقبولة، وتتكون في ثنايا بعض النفوس، بعضا من أحاسيس القناعة أو الرضا أو الاستسلام، إلا أن أمر الرغبة في الخروج من هنا لم يصبح أبداً أمراً قابلاً للاستبدال والنسيان، ونحن هنا لازلنا نتشوف بحماس إلى الخروج.

عن المؤلفة

مروة المتولي عبد السلام المتولي

مصرية من مواليد المنصورة (منية النصر) في 1 يناير، 1978
كاتبة، ناقدة أدبية، وباحثة أكاديمية.

صـدر لها:

- حداثـة النـص الأدبـي المسـتند إلـى التـراث العربـي، دراسـة لفنيات الموروث النثري وجماليات السرد المعاصر في أدب جمال الغيطاني (1669، 2005) ، دار الأوائل للنشر ، دمشق .2008

قيد النشر:

في العالم مكان يدعى التوهيل، رواية، دار ملامح، القاهرة.

للتواصل :
marwametwally@gmail.com